أحمد عبد الكريم

كولاج

رواية

كولاج

كولاج
أحمد عبد الكريم
ردمك: 978-9931-677-06-2

الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018

الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى
مدير النشر: عبد الرزاق بوكبة
إيميل: nashr@dzreads.com
/dzreads @dz_reads dzreads.com

جميع الحقوق محفوظة ©

كولاج

أحمد عبد الكريم

« الخط هندسة روحانية، وإن ظهرت بآلة جسمانية .»

إقليدس

قال أبو عبدالله الكاتب حين سئل: ما تقول في خط ابن مقلة؟ قال: ذاك نبيّ فيه أفرغ الخط في يده كما أوحي إلى النحل في تسديس بيوته.

من كتاب رسالة أبي حيّان التوحيدي في علم الكتابة.

يقول أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة:
«... ثم ناح على نفسه وبكى على يده، وقال يد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاث خلفاء، وكتبت بها القرآن دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص؟ ..»

من كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لإبن أبي أصيبعة.

يذكر ابن العمراني خبرا عن كف ابن مقلة المقطوعة مفاده: أنها رميت في نهر دجلة في آخر زمان الراضي بالله حين امتلأت خزانة الرؤوس..

ابن مقلة خطاطا وأديبا وإنسانا لهلال ناجي.

« كتب ابن مقلة كتاب هدنة بين المسلمين والروم بخطه، وهو إلى اليوم – أي زمن الثعالبي سنة 429 هجرية – عند الروم في كنيسة قسطنطينية، ويبرزونه في الأعياد، ويعلّقونه في أخصّ بيوت العبادات، ويعجبون من فرط حسنه وكونه غاية في فنّه»

من كتاب «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» للثعالبي

1

كان عليّ الجنوي منهمكا أمام الشوفالي، يضع اللّمسات الأخيرة على لوحته التي بدأها منذ أيام كي يضيفها إلى المجموعة التي سيضمّها معرضه القادم. يضرب على القماش ضربات سريعة بالفرشاة، ثم يبتعد كي يتأمل فسيفساءها، يأخذ رشفة من قهوة باردة، ويشعل من جديد سيجارته التي انطفأت، يأخذ منها بعض الأنفاس ويتركها على الطّاولة كعادته كي تتآكل قليلا ثم تنطفئ مرّة أخرى.

دقّ عليه باب المرسم بوّاب مدرسة الفنون الجميلة، ودون أن ينتظر الإذن بالدخول دخل برفقة شاب طويل يرتدي بذلة أنيقة ذات لون كاكيّ غامق ..

- معذرة أستاذ عليّ.. لديك ضيف.

قال البوّاب ثم قفل راجعا.

التفت عليّ بحركة سريعة من رأسه باتجاه الضّيف، وقد تملّكته الدّهشة والفضول فلم يكن الشخص ممّن تعوّدوا التردّد على مرسمه

من حين إلى آخر، وضع حزمة الفراشي، نفض يديه من لا شيء، ثم أقبل على ضيفه مصافحا إياه:

- أهلا ...

- معذرة أستاذ عليّ على الإزعاج، ولكنّنا بحاجة إلى مساعدتك لنا، أقدم لك نفسي أنا الضابط محمود من دائرة الشرطة..

وأردف بسرعة حين لحظ اضطراب عليّ ولجلجته:

- أطمئنك سيد عليّ، ولا يذهب بالك بعيدا، فليس في الأمر ما يدعو إلى القلق..

- خيرا إن شاء الله..

- لا شيء غير الخير قلت لك، كل ما في الأمر أن هناك صحافيا فرنسيا طلب مقابلتك. يريد بعض المعلومات عن أحد معارفك، يبدو أن لديه مشكلة مع الإنتربول..

مسح الضّابط ببصره فضاء المرسم، وهو يتفحّص اللّوحات المترامية هنا وهناك بعضها مكتمل وبعضها ما يزال بحاجة إلى الإنهاء.

- سيّد علي أنت فنّان معروف، وأستاذ محترم، ولذلك لم نرد أن نشوّش عليك، أو نسيء إلى سمعتك، ولذلك نرجو أن تشرِّفنا بالحضور إلى دائرة الأمن المركزية، يوم السبت صباحا، إذا لم يكن

لديك مانع..

- طبعا لا.. ولكن هل يمكن أن أعرف من هو هذا الصّديق المتورّط؟

- لا تستعجل الأمور ستعرف كل شيء في حينه..

غادر الضابط تاركا عليّ في دوّامة من الحيرة، أسير الوساوس والقلق والأسئلة المتدافعة، أحسّ لأوّل مرّة برائحة الأصباغ والبنزين القويّة في مرسمه، وشعر بأنفاسه تضيق عليه، أخرج رأسه من النافذة المطلّة على الحديقة وتنفس بملء رئتيه.. ومن وراء السّياج الخارجيّ البعيد رأى الضابط يمتطي سيّارة رمادية كانت في انتظاره..

كانت السّاعة تشير إلى الثّامنة تقريبا حين تجاوز عليّ بوّابة مدرسة الفنون الجميلة مغادرا، اكتفى بتلويحة متعبة إلى البوّاب الذي راح يغلق البوّابة خلفه بإحكام، توقّف قليلا يلحظ المدينة وقد خيّم عليها المساء، واشتعلت أضواء الشّارع الطويل، فضل أن لا يستقلّ سيّارة أجرة إلى البيت كما هي عادته، أحسّ بهواء الخريف البارد يلسع صدره، ويخترق قفصه الصّدري، تلفّع بياقته وضغط بكلتا يديه على سترته كي يصدّ الهواء البارد على صدره، أحنى رأسه كي يتجنّب مواجهة النسمات بعينيه، وهو ينحدر مترجلا باتجاه وسط المدينة.

سار على غير هدى، كان ذاهلا عن السيّارات وهي تمرق بسرعة،

وعن حركة المارّة وهم يسرعون في العودة إلى بيوتهم، أمّا هو فقد فكّر بينه وبين نفسه بأنه يستطيع أن يتأخر اللّيلة، فلا أحد سيكون في انتظاره، لأن زوجته غائبة عند أهلها، وهي على وشك الوضع.

راودته فكرة أن يرتاد الحانة التي كان يتردّد عليها منذ سنوات خلت، لكنّه قمع إلحاح الفكرة عليه، لأنه كان قد عاهد زوجته على أن يقلع عن الخمر منذ أنجبت زوجته ابنتهما شهد، وآلى أن لا يعود إليها مهما كانت الظّروف.

هاهو يقف على مشارف الخمسين، سنّ اليأس والحكمة، بشعره الفضيّ، وشاربه الكثّ المرقّش بالشّيب الذي اصفرّ من أثر التّدخين، وقد أدار ظهره للحياة وتشبّع بالحكمة. بعدما انجلى عنه سنّ الأوهام والأحلام، مكتفيا بتحقيق ما تأخّر من أحلامه الصغيرة. شقّة من ثلاث غرف دفع مقابلها دم القلب، وكل ما ادّخره في السّنوات العجاف، وزوجة صالحة هي كل ما عاد به من العاصمة التي قضى بها زهرة شبابه. كانت صليحة طالبة تدرس عنده، ثم تخرجت ولكن جذوة الإعجاب بأستاذها الفنان لم تخبُ في قلبها. كان هو يشعر بذلك ويأنس إليها لكنّ الأمر لم يتجاوز حدود الملاطفة والمجاملة. حتى زواجهما منذ سنوات..

حين لجأ إلى سطيف، أو «ستيفيس» حسب التّسمية الرومانية القديمة، هذه المدينة الداخليّة الهادئة مع مطلع التسعينيات، وقد اشتدّ سعير الإرهاب، وبدأ أصدقاؤه من الفنّانين يسقطون تباعا في

أزقة العاصمة مغدورين برصاص الإرهاب، هاجر منهم من هاجر، أما هو فلم يكن قادرا على أن يعود إلى حياة الغربة بعد سبع سنوات قضاها طالبا بالمعهد العالي للفنون بموسكو. لذلك قرّر الانتقال للتدريس بمدرسة الفنون الجميلة بهذه المدينة كي يكون بمنأى عن الاغتيال.

عندما استقرّ قليلا، لم تكن تنقصه غير المرأة، تذكّر صليحة، وما كان بينهما من إعجاب متبادل، وحب مكتوم. طلب يدها وصارت زوجته بعدما تجاوزت الثلاثين من عمرها.

دلف إلى أحد المقاهي، وفي نيّته أن يجلس به بعض الوقت، لكن النّادل أخبره بأنهم سيغلقون بعد قليل شرب قهوته الثقيلة على عجل، كان في قرارة نفسه يرجئ العودة إلى بيته، والخلوة بنفسه كي لا يقف في مواجهة ما ينتظره من هواجس ووساوس، ولكي لا يدخل في دوّامة التّخمينات التي يدرك سلفا أنها لن تفضي إلى إجابة واضحة.

هامشيّته كانت توهمه بأن ما يحدث لا يمكن أن يحدث إلاّ للآخرين، ولم يكن يتوقع لحظة أن يقف هذا الموقف، أو أنّه سيعيش هذه المحنة وهذا الجحيم النّفسي الذي لا قبل له به، ولا يعرف كيف يواجهه، لأنه كان يعيش «بعيدا عن الشرّ ويغني له»، وكان ملاذه الوحيد وضوء حياته، حرفته الوحيدة التي لم يعرف غيرها: الرّسم.

ها هو يغلق على نفسه باب شقّته مرعوبا، وحده الآن في مواجهة

أسئلته ووساوسه، أعدّ نفسه لطقوس النّوم، أخذ حماما سريعا، لبس منامته، حتّى وهو يعلم أن النّعاس سيكون مستحيلا، ومحض أمنية عزيزة المنال، أطفأ النّور وأشعل التلفزيون، راح يتنقل من قناة إلى أخرى، ضاغطا بعصبية على علبة التّحكم، كان يحملق بعينيه في الشاشة ولكنّه لا يرى شيئا..

عندما أذّن الصبح كان قد أتى على كل علبة السجائر التي اشتراها في طريقه إلى البيت، خضّها كي يتأكد من خلوها من أية سيجارة، ثم سحقها في كفه ورماها بعيدا. ألقى نظرة على وجبة الخبز والزيتون والجبن التي وضعها على الطاولة الصغيرة منتظرا أن يأكلها متّى أحس بالجوع لكن ذلك لم يحدث، لأن الجوع كان قد صعد إلى جمجمته ورأسه وأقضّ مضجعه، وراح يسحق أمعاءه ومعدته بالحموضة الناجمة عن الإفراط في التدخين وشرب القهوة. مستعيدا في كل مرّة السؤال الذي فاجأه نهاية الأسبوع، وكان عليه أن ينتظر بداية الأسبوع كي يتلقّى الإجابة عليه:

- منْ من أصدقائي له مشكلة مع الإنتربول؟

2

في صبيحة يوم السّبت كان عليّ قد وصل إلى دائرة الأمن المركزية مع بداية الدوام، طُلب منه أن ينتظر لأن الضّابط محمود لم يصل بعد، فضّل المغادرة وتمضية الوقت في الكافيتريا القريبة. طلب قهوة ثقيلة عساها تزيل عنه آثار الأرق وتعيد له بعض التّركيز.

كانت علامات الإرهاق بادية على وجهه من خلال الهالات الزرقاء المحيطة بعينيه المحمّرتين، فقد أمضى نهاية أسبوع كئيبة، لم يفعل شيئا غير التّخمين ووضع الأسئلة التي لم تكن تفضي إلى إجابات، وغير الاحتمالات عمن يكون المتورّط، وإن كان الأمر يتعلّق الأمر بجريمة من جرائم الإرهاب يكون قد تمّ توريطه فيها.. لم يغادر بيته إلاّ لاقتناء الخبز والسجائر من البقالة التي تقع أسفل العمارة التي يسكن بها. وقد ظلّ طول الوقت مستلقيا على كنبة الصّالون مشلول التفكير معطّل الحواسّ شارد الذهن..

ما إن دخل مقر الشرطة ثانية حتّى بادره عون الاستقبال بالقول:

- الضّابط محمود في انتظارك، الطّابق الثّاني، المكتب الأول

عن اليمين..

توقف في نهاية الطابق الثاني لاهثا، كي يستعيد أنفاسه الطبيعية ويمسح عن جبينه العرق البارد الذي كسا جسمه من الإجهاد.

طرق على الباب طرقا خفيفا، ثم دخل:

- صباح الخير حضرة..
- آه أستاذ عليّ.. أهلا كيف حالك. تفضّل بالجلوس.
- في الحقيقة هذه أوّل مرة أدخل فيها إلى مركز شرطة..
- ياه.. لحظة من فضلك..

قال الضّابط، وهو يرتّب بعض الأوراق والملفّات، ثم أدار رقم أحد الهاتفين الموجودين على مكتبه قائلا:

- صباح الخير حضرة المحافظ، السيّد عليّ الجنوي، موجود في مكتبي الآن.هل..؟

ترك سؤاله معلقا، وبدا عليه الاهتمام والتركيز وهو يصغي إلى المتحدّث على الطرف الآخر، للحظات بدت طويلة بالنسبة لعليّ، الذي راح يتأمل محتويات المكان من خرائط وصور.. ثم أنهى الضّابط مكالمته بالقول:

- سنكون هناك بعد نصف ساعة من الآن..

ضرب الضّابط بكلتا قبضتيه على ذراعي كرسيّه الدوّار متأففا متبرّما وقال:

- أستاذ علي هل أطلب لك قهوة؟
- لا شكرا.
- إذن فلنغادر فلدينا موعد، وليس أمامنا وقت كاف.

أمام باب مقرّ الأمن المركزي كانت السيارة الرّمادية الرباعية في انتظارهما، استقلّاها. ركب عليّ في المقعد الخلفي، بينما ركب الضابط بجانب السائق وقال له قبل أن يقلع بالسيّارة:

- فندق ألف ليلة وليلة..

استقبلتهما عاملة الفندق الفخم، بابتسامتها العريضة، وما إن أخبرها الضابط بموعدهما مع السيد نافري، حتى أخبرتهما بأنه في انتظارهما في جناحه، وأشارت إلى شاب من أعوان الفندق، رافقهما إلى المصعد ومنه إلى الجناح الوجهة. ضغط عامل الفندق على زرَّ الإنترفون، فجاء الصّوت عبره، بلغة فرنسيّة صافية:

- دقيقة من فضلكم فقط..

وما هي إلا برهة من الزّمن حتى فتح الباب معتذرا ومرحبا بحرارة. في صالون الجناح كان يبدو أنه كان يشتغل على حاسوبه المحمول متّصلا بالإنترنت.

يبدو السيد نافري، المحقق الصحفي، في قميصه الرمادي وربطة عنقه الزرقاء مليئا بحيويّة الشباب رغم أنه جاوز الخمسين، وقبل أن يدعوهما إلى الجلوس بادر السيّد علي مصافحا له، مظهرا بشاشة كبيرة:

- أكيد أنت السيّد علي الجنوي.. أتشرّف بالتعرف إليك أيّها الفنّان الكبير..

طلب الضّابط محمود الإذن بالانصراف، والاتصال به لأي خدمة، فشكره المحقّق، وهو يشيّعه عند الباب، ثم اتّجه إلى الهاتف. طلب من خدمة الفندق قهوتين، وجلس على الأريكة المقابلة:

- أظنّ أنك من هواة الأرابيكا مثلي.. لقد حاولت أخذ فكرة عنك من خلال الشبكة العنكبوتية، قرأت عن معارضك، وقرأت حوارات لك، وشاهدت عددا قليلا من لوحاتك، إنها حقّا رائعة حتّى وإن لم أكن من هواة التجريد والحروفية، ولم أتوصل إلى فك رموزها..وأرجو أن أعمّق فكرتي عنك..

ثم ضرب كفا بكف وبدّل أسارير وجهه من الهزل إلى الجدّ وقال:

- سيد عليّ أنا حقا مدين لك بالاعتذار عن الإزعاج الذي أسبّبه لك، ولكن أرجو أن تعذرني لأنني لم أجد غير هذه الطريقة للاتصال بك، وثق أنّني حرصت على أن يتمّ الاتصال بك ومعاملتك بالاحترام الذي يليق بك، ولذلك أرجو أن تثق فيّ وتعتبرني صديقا لك أكثر من أي شيء آخر، حتّى وإن كانت

الظروف قد جمعتنا بهذه الطريقة..

قام المحقّق إلى الطّاولة، وعاد بعلبة المارلبورو ومطفأة السجائر. وضعها على الطّاولة، ثم مدّ علبة السجائر إلى عليّ عارضا عليه التّدخين، غير أنه اعتذر قائلا:

- شكرا لديّ نوعي الخاص..

- هذه فرصة كي أجرّب نوعك.. ما اسمه؟

- ريم.. قال عليّ، وهو يمدّ له بعلبة سجائره، التي سحب منها المحقّق سيجارة، ومدّ بقدّاحته المشتعلة إلى عليّ، فأشعل له، ثم أشعل سيجارته هو أيضا..

- شكرا..قال عليّ.

- العفو. ماذا يعني ريم؟ سأل المحقّق، وهو يأخذ نفسا عميقا من السّيجارة، ويتذوّقه.

- ريم..عندنا هو الغزال..

- آه..الغزال.

ثم راح يواصل كلامه، وهو يدخّن ويتجنّب النّظر في وجه عليّ مباشرة، الذي كان يصغي باهتمام، ويدخّن بعمق.

- كنت أقول إنني مكلف بإنجاز تحقيق صحفي معمّق، في القضيّة التي جئت من أجلها، وأطمع في مساعدتك لي، ولك

أن تعتذر إذا شئت، وأؤكد لك أنه لن يترتّب عن ذلك أي شئ في حقّك أو ضدك، فأنا أستطيع الحصول على المعلومات التي أريدها بطرق أخرى..

قاطعه عليّ، وقد بدأ صبره ينفد من هذا التشّويق:

- معذرة، إلى حدّ الآن لا أعرف القضيّة، وما هو المطلوب منّي؟

وقبل أن ينبس ببنت شفة ويجيب، دقّ جرس الباب، فهبّ المحقق من مكانه:

- ها قد جاءت الأرابيكا..

وضع عامل الفندق صينية القهوة على الطّاولة الواطئة، وغادر بهدوء، أفرغ كل منهما السّكر في فنجان البورسلان، وأخذا الملعقة، وأداراها بنفس الحركة.

أخذ عليّ رشفة من فنجان القهوة، ثم أعاده إلى الطاولة وأشعل سيجارة أخرى، في حين أمسك المحقّق فنجان القهوة بكلتا يديه، وأخذ يرتشف القهوة بتلذّذ ويقول:

- باختصار شديد هناك أثر فني اختفى، أو لنقل سرق من متحف آيا صوفيا بمدينة أسطنبول، هو عبارة عن نسخة أصلية من معاهدة تمّت بين البيزنطيين والعرب المسلمين، في العصر

العبّاسي، وقد كتبها خطّاط مشهور يسمّى ابن مقلة...

فقاطعه عليّ، وقال له:

- معذرة سيّد نافري مرّة ثانية، ولكن ما علاقتي أنا بالقضيّة؟

- تعرف السيّد عليّ – قال المحقّق – الشكوك كلّها تتّجه نحو شخص واحد، يبدو أنه كان صديقا لك.. ربما تتساءل كيف اهتديت إليك أنت. أجيبك. ببساطة حين قامت الشرطة بتفتيش شقّة المتّهم المقيم بباريس، والذي اختفى وهو محل بحث، عثرت، من ضمن ما عثرت عليه صورة فوتوغرافية لكما معا أمام لوحة لك، وحين قمنا بالتحرّي وجدنا أنكما كنتما على صلة ببعضكما البعض..

قام السيّد نافري وعاد بملف أصفر كان في حقيبته الدبلوماسية، مدّ الصورة إلى عليّ الذي نظر فيها مليّا، ثم أفرد ذراعية واستلقى إلى الخلف على الكنبة وهمهم:

- فعلتها أيها البرذون..

ثم قال بصوت أكثر ارتفاعا من ذي قبل:

- أخذنا هذه الصورة معا في معرضي «كوريغرافيا الأبجدية» بباريس منذ عامين، أمام لوحتي «تأبينية أبي عليّ».

فقاطعه المحقّق قائلا:

- أنا لا أستنطقك يا سيد عليّ، ولا أطلب أن تجيبني الآن.. خذ

هذا الملف اطّلع عليه، ثم يكون لنا حديث آخر.

تناول عليّ الملفّ الأصفر وهمّ بفتحه، لكن المحقّق قال له مبتسما :

- قلت لك ليس الآن..فأنت ضيفي على الغداء.

على طاولة الغداء في مطعم الفندق، اكتفى عليّ بدور المصغي، وكان يشعر بإعياء كبير، ويستعجل الزّمن كي يلقي بجسمه على السّرير. أما المحقّق فقد بدأ حديثه برغبته في تذوق الأطباق المحليّة، وراح يسرد عليه أسماء الأطباق التي تناولها في سفرياته عبر بلدان كثيرة زارها، ثم عرّج على شغفه بالمتاحف العالمية وبعض التحقيقات التي قام بها عن سرقة اللوحات الفنية وتهريب الآثار..

كانت الساعة الثالثة بعد الزوال عندما استقلّ عليّ سيارّة الأجرة من أمام باب الفندق عائدا إلى بيته، بعد أن ودّع السيد نافري على أن يلتقيا في موعد آخر.

3

لم يدر عليّ كيف مرّ عليه كل هذا الوقت وهو نائم، فقد نام نوما عميقا، بعد التّعب الذي نال منه، والسّهر الذي بلغ منه مبلغه، وحين فتح عينيه وجد صعوبة كبيرة في مغادرة مكانه، فظلّ مستلقيا، استدار برأسه إلى المنبّه، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل..

انتبه إلى أنه نام بثيابه، ولم يجد الوقت كي ينزع جواربه، لم يكفه الوقت إلا لنزع سترته وحذائه، قبل أن يستلقي على سريره، ويستسلم إلى نوم عميق كان أشبه بالغيبوبة.

كلّف نفسه عناء النّهوض والجلوس على حافة السرير بضع دقائق، ثم توجه إلى الحمّام، رش وجهه بالماء البارد كي يستفيق تماما، ويستعيد حيويته، وحين نظر إلى المرآة حينها فقط انتبه إلى أنه حيّ مستيقظ...

دخل إلى المطبخ، لم تكن لديه رغبة للأكل، حضّر قهوة سريعة، وعاد فأشعل سيجارة واتّجه إلى شرفة الصالون المطلّة على جانب من الحيّ. امتدّ أمام بصره منظر المدينة بأضوائها الباهتة، وهي تستسلم

إلى سكونها من أي حركة. إلا من نباح الكلاب الضّالة والسيّارات المسرعة على إسفلت الطّريق الخالي.

لسعته برودة الهواء الليليّ، فعاد أدراجه إلى الصّالون وأغلق باب الشرفة وراءه، أبصر الملفّ الأصفر ملقى على الأريكة بجانب سترته، حيث وضعه قبل أن يخلد إلى النّوم منهكا خائر القوى. راح يستعيد ما مرّ عليه من لحظات انتظار عصيبة نهاية الأسبوع، ثم استرجع بعض تفاصيل لقائه مع المحقّق نافري وما جرى بينهما من حديث في بداية اليوم الذي ولّى..

حين فتح عليّ الملفّ طالعته مذكرة بحث أصدرها الإنتربول في حقّ عابد الجيلاني، المولود بمدينة تقرت بالجزائر، المقيم بباريس. حيث يعمل كمصوّر في مؤسسة خاصة للإنتاج السمعي البصري.

وصمت المذكرة بعض بيانات العمل الفني المسروق بشكل مختصر:

- اسم الأثر الفني: كتاب هدنة بين العرب والروم (خط عربي)
- تاريخ إنجازه: الفترة مابين 886 -940 م
- أنجزه: أبو عليّ بن مقلة.
- تاريخ السرقة: بين 14- 20 أفريل 2010.
- سرق من متحف آيا صوفيا – اسطنبول تركيا.

إلى جانب هذه البيانات كانت هناك صورة للعمل الفنيّ المسروق، كما كانت هناك صورة أخرى مكبّرة بالأبيض والأسود، تبدو وكأنها وصلت عن طريق الفاكس أو هي نسخة طبق الأصل. تمثل رجلا قريبا في ملامحه من الجيلاني عابد، حتّى وإن كان يعتمر قبعة أمريكية، ويظهر حليق الوجه.

كأن الصورة قد التقطت من شاشة كاميرات المراقبة الموجودة بالمتحف، ففي أسفلها يبدو تاريخ وتوقيت. الثلاثاء: 2010/04/14. الساعة:15.15. وقد تمّت معالجتها عن طريق الحاسوب وطباعتها.

صورة الجيلاني نفسها، ظهرت على قصاصات الجرائد بشكل مصغّر مرافقة لبعض الأخبار التي تناولت سرقة العمل الفنّي بعناوين مختلفة مثل: «اختفاء مخطوط ثمين من متحف آيا صوفيا» و«التحقيق الأوّلي يكشف هويّة السّارق» و«سرقة نسخة نادرة من معاهدة الهدنة بين الروم والعرب المسلمين». «التحقيق مع مدير المتحف بتهمة التقصير وتلقي الرّشوة». «مدير متحف آيا صوفيا كان ضحيّة احتيال السارق». كل الأخبار كانت تورد نفس المعلومات تقريبا..

أما جريدة الفيقارو الفرنسية، فقد نشرت تحقيقا مطولا عن الحادثة، تضمّن تفاصيل عن الموضوع استقتها من شهادات أعوان الأمن المكلفين بحراسة المتحف ومن تحقيق الشرطة التركية وبعض المختصين والمهتمين..

بداية الريبورتاج تناولت تاريخ مدينة أسطنبول وأهمّ المتاحف بها مشيرة إلى أن المقتنيات والآثار الإسلامية والعثمانية تشكل النسبة الأكبر بهذه المتاحف. مثل متحف السيراميك ومتحف الخطّ العربي...

تناول التّحقيق تاريخ متحف آيا صوفيا الذي يعتبر من أروع المعالم الأثرية والمعمارية في العالم. لكنّه كان محلّ تنازع بين المسيحية والإسلام، وقد كان مبنى المتحف الحالي أوّل الأمر كنيسة. ظلّت تشكّل لقرون طويلة أكبر مركز ديني للمسيحيين، ولم تتجاوزها إلا كنيسة سانت بيار في روما. وترمز إلى قوّة الإمبراطورية الرومانية في الشّرق، وبعد الفتح العثماني لتركيا تمّ تحويلها إلى مسجد وصارت ترمز إلى نفوذ الإمبراطورية العثمانية.

بنيت آيا صوفيا عام 532 م، حين أمر الإمبراطور جوستنيان المهندسين: إسيدور دو ميلي، وانتنيوس دو تراليس ببناء كنيسة في مكان كان يوجد به هيكل يوناني قديم. تمّ تدميره في إحدى الثورات. وقد تمّت عملية البناء التي استمرّت خمسة أعوام، باستعمال حجارة البنايات الأثرية اليونانية القديمة، وشارك فيها آلاف العمّال والحرفيين من كل أنحاء الإمبراطورية.

بدخول العثمانيين صارت القسطنطينية تحمل اسم الأستانة عاصمة الإمبراطورية. وقد حوّل محمد الثاني الكنيسة إلى مسجد، بعد أن غطّى صورة السيّد المسيح التي كانت تزيّن القبّة، وعوّضها

بالخطّ العربي، ولأنّ الدين الإسلامي كان يمنع استعمال الصّور في المساجد فقد تمّ طمس لوحات الفسيفساء الرومانية دون إتلافها كليّا إدراكا لأهميتها وقيمتها. كما يشير كاتب الربورتاج إلى عملية التّرميم التي قام بها المهندسان السويسريان الأخوان فوساتي بين سنتي 1849و 1857.

عند وصول مصطفى كمال أتاتورك إلى الحكم، عام 1934 فضّل تحويلها إلى متحف تركي، وأسند إلى معهد الفنّ البيزنطي ببوسطن مهمّة ترميمها وإعادة تأهيل لوحات الفسيفساء التي تعدّ اليوم أهم كنوز متحف آيا صوفيا.

تنتصب في أعلى المبنى المنارات الأربع المحيطة بالقبّة التي يتجاوز علوّها 56 مترا، والعجيب أنها لا تستند إلى أيّة أعمدة ترفدها من داخل المبني الذي يضمّ رواقين. أحدهما في جهة الشمال، والثاني من جهة الجنوب، وبهما توجد مقتنيات المتحف ولوحات الفسيفساء الرّوماني.

يوجد أمام المدخل فناء به قاعة السّاعة الحائطية للمهندسين الأخوين فوساتي، وسوق السجّاد التركي، وبعض الأضرحة والمزارات..

وفي هذا السياق يورد كاتب الريبورتاج مقتطفا لأحد المؤرخين العرب القدامى وهو الثعالبي يقول إن «ابن مقلة كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم بخطّه فهو إلى اليوم في كنيسة قسطنطينية

يبرزونه في الأعياد ويعجبون من فرط حسنه، وكونه غاية في فنّه..»

يعود الكاتب إلى سرد وقائع عملية السّرقة، بالاستناد إلى تحقيقات الشّرطة، ويؤكد أن السّارق المفترض للأثر الفنّي كان قد تردّد عدّة مرّات على المتحف، وفي المرة الأخيرة طلب مقابلة مدير المتحف، وقدم نفسه على أنه مخرج سينمائي بصدد إنجاز شريط وثائقي عن الخطّاط ابن مقلة، وأن تصويره لهذا العمل الوحيد المتبقي من آثار ابن مقلة هو الشّيء الوحيد الكفيل بإعطاء أهمية لشريطه، ولذلك فقد طلب الإذن له بتصويره. غير أن المدير رفض الأمر متحجّجا بأن البتّ في الإذن بالتّصوير يتجاوز صلاحياته إلى جهات أعلى منه.

في البداية أصرّ مدير المتحف على أنه كان ضحيّة احتيال، ثم سرعان ما اعترف بأنه تلقى رشوة من السّارق من أجل السماح له بتصوير الأثر الفنّي في يوم عطلة المتحف، وأنّه هو الذي قام بتعطيل عمل كاميرات جهاز المراقبة الخاص بأروقة المتحف، أثناء ذلك، فلم تتمكّن من رصد عملية السرقة..

أثناء التصوير طلب عابد الجيلاني إخراج الصّحيفة من الخزانة الزّجاجية التي كانت محفوظة بها لأنه يتعذّر عليه تصويرها بسبب انعكاس ضوء الواجهة الزجاجية على عدسة الكاميرا. فما كان من مدير المتحف إلا أن أخرجها بعناية وحملها إلى قاعة خاصة حيث وضعها على طاولة مغطاة بإزار أسود.

كانت النسخة الأصلية لكتاب الهدنة عبارة عن صفحة من ورق الكاغد تمت معالجتها بزلال البيض، كتب عليها نصّ الهدنة بين الخليفة العباسي وبين ملك الرّوم الأناضوليين.

أخرج عابد الجيلالي عدّة التصوير التي كانت عبارة عن كاميرا رقميّة متطورة مجهزة بفلاش ضوئي استعملها في تصوير العمل من زوايا مختلفة كانت آخرها صعوده على الطاولة وتصويره للصحيفة بشكل شاقولي..

فترة التصوير التي دامت ما يقارب الساعة في قاعة مظلمة إلا من ضوء الكاميرا يرجّح التحقيق أنها هي التي سمحت للسارق بإخفاء الصحيفة في حقيبته مع عدّة التصوير، واستبدالها بنسخة مزيّفة، لكنها مقلدة بدقة متناهية، سرعان ما أعادها مدير المتحف إلى مكانها بعد نهاية التصوير..

بعد مرور خمسة أيام من عملية السرقة تفطن ملحق الحفظ إلى تكشط في زوايا نسخة الصحيفة بسبب الرطوبة، مما أدى إلى اكتشاف عملية السرقة..

بعد التبليغ واعترافات مدير المتحف بمرافقته للسارق، وتناوله للعشاء معه في فندق "البوسفور"، حيث كان يقيم. توصلوا إلى أنه كان يحمل جواز سفر مزوّر. وقد يكون تمكن من مغادرة البلاد عبر الحدود العراقية.

ما يلفت الانتباه في ريبورتاج الفيغارو، هو أنها لمّحت بشكل غير مباشر إلى إمكانية ضلوع تنظيم القاعدة في عملية السرقة هذه، وعلّلت ذلك بمحتوى كتاب الهدنة الذي ينافي محتواه أفكار هذا التنظيم الذي يعلن الحرب على الكفر، بل ذهبت إلى القول «إن سرقة اللوحات والآثار الفنية عادة ما تتمّ من أجل أهداف مادية. الغرض منها إعادة بيع هذه الآثار. غير أن الأمر مختلف هذه المرّة إذ يبدو أن هناك دوافع سياسية ودينية يقف وراءها تنظيم القاعدة، أو إحدى الحركات الجهادية الإسلامية المعادية للغرب في الوقت الذي تتوج فيه اسطنبول عاصمة للثقافة الأوربية خلال عام 2010 م".

4

نزع عليّ النظّارة المريحة للبصر، فرك عينيه بقوة، ثم أعادها وراح يتأمل صورته مع الجيلاني، أمام لوحته «تأبينية أبي عليّ». كان يبدو فيها ساكنا وقورا، مواجها لعدسة التصوير، بينما بدا عابد الجيلاني مليئا بالمرح والحيويّة، في وضعية جانبية، وكأنه كان يتّجه بنظره إلى علي واللوحة في آن واحد.

يتذكّر جيّدا أن صديقته الأوكرانية زنايدا كانت ترافقه، وهي التي التقطت لهما الصورة، في معرضه برواق معهد العالم العربي في ربيع العام الماضي...

راح يستعيد ذلك القلق الذي رافقه طوال فترة التّحضير لمعرضه «كوريغرافيا الأبجدية». الذي استنزف من جهده، ومن أعصابه، ومن مشاعره ما لم تبق بعده بقيّة. كان المعرض محطّة حاسمة في مساره الفنّي، ولذلك أراده خلاصة لذاكرته وأحلامه وعمره، وكلّ هوسه بالحروف. ذلك أن فرصة العرض والمرور على مدينة كباريس ليس بالأمر الهيّن، فإما أن تخرج منها فاتحا مشهورا، أو مهزوما منكسرا.

ظلّ القلق يلازمه طوال أيّام المعرض، إلى أن بدأت الصّحافة تكتب عنه وتثني على أسلوبه. كان في لوحاته يريد أن يبرز الجانب الحسّي لأشكال الحروف، حتّى تثير في مشاهديها شهوة ورغبة من نوع خاص، محاولا أن يكسر يباس وثبات أشكالها وجعلها ترقص في فضاء اللوحة على إيقاع الألوان. فكما أن الخطّ هو هندسة روحانية، فإنه في الوقت هندسة جسديّة لها كوريغرافياها.

كانت لوحة «تأبينية أبي عليّ» التي ظهرت صورتها على كتالوج المعرض، هي اللّوحة التاسعة والعشرون، وأرادها لوحة تختزل كل لوحات المعرض، التي انفردت كل لوحة منها بإبراز كوريغرافيا حرف من الحروف من الألف إلى الياء، محاولة إبراز مرونته وانسيابه على فضاء لوني يلائم حركته. وانتقاله من شكل إلى آخر ومن لون إلى آخر بحريّة متناهية..

أما «تأبينية أبي علي» فقد كانت مساحة من تدريجات الأحمر الذاهب نحو الأرجواني الرامز إلى ذلك المصير التراجيدي الذي واجهه الخطّاط العربي الشهير أبو عليّ ابن مقلة، وفي أعلى اللّوحة إلى اليمين كانت هناك دائرة كبيرة بلون الأصفر العتيق الذي يحيل على صفرة المخطوطات، وقد تداخلت الحروف الثمانية والعشرون مشيرة إلى الدّائرة التي استعملها ابن مقلة في هندسة الحروف التي لم يسبق إليها. معتمدا على الدائرة ومنطلقا منها في إعطاء شكل لكل حرف. تعتمد قياساته على نقطة القلم الذي يكتب به

الخطّاط...

في أسفل اللوحة كان هناك رسم غامض لشبح حصان لوِّن بلون قريب من لون المداد، وفي ذلك إشارة إلى أن قياس أقلام الخطّ المتنوعة كان يعتمد على شعرة البرذون، فقد يعادل سمك القلم أربعا وعشرين شعرة، وقد يكون نصف العدد، وقد يكون الثلث، أي ثمانية شعرات، والثلث هو القلم الذي ينسب إليه خطّ الثلث ويعود الفضل في ابتكاره إلى الخطّاط ابن مقلة. مبتكر خط النسخ أيضا.

كان بهو المعرض يوم الافتتاح غاصّا بالصحافيين والفنّانين والمهتمين بالفنّ، كانوا يحملون كتالوجات وينتقلون من لوحة إلى أخرى يتأملون ويحاولون فك رموزها ومعانيها، وهم يتحدثون فيما بينهم عما يمكن أن تحيل عليه من أفكار ودلالات.

أما عليّ فقد وقف مع مدير المعهد يستقبلان المدعوين عند مدخل البهو، لكنهما سرعان ما التحقا بالمدعوين، في كل هذا كان من السّهل على عليّ أن يخرج من خجله وانزوائه لينخرط في جو المعرض الحميم، متنقلا من مجموعة إلى أخرى ومن صحافي إلى آخر مرحّبا مبتسما، ومجيبا في أحيان عن سؤال حول هذه اللّوحة أو تلك بلباقة وطلاقة.

كان عليّ قد فرغ من حوار مع إحدى المذيعات، حين أحسّ بيد تمسك ذراعه، فاستدار برفق، غير أن الزائر أزاح عن عينيه نظارته

السّوداء وبادره بالقول:

- يبدو أنك نسيت صديقك البرذون.. يا عليّ.
- مستحيل.. من الجيلاني عابد.. يا لها من مصادفة.. أين أنت يا رجل؟
- أنا هنا في باريس من عشرين عاما..

ثم التفت إلى مرافقته وقال لها:

- زنايدا.. أكيد أنك تتذكرين عليّ الجنوي..

- أنا سعيدة بلقائك.. قالت زنايدا بحياء وخجل.

كانت زنايدا في غاية الرّقة والأنوثة، ينسدل شعرها الأشقر على كتفيها، وتضع على عينيها الزرقاوين نظّارات مستطيلة الإطار صغيرة.

لم يتغير الجيلاني عابد، وظلّ على حيويته وظرفه المعهود، رغم سوء الحظّ الذي ظلّ يلازمه طوال عمره، فهو الوحيد من بين زملائه في المعهد العالي للفنون بموسكو الذي عاد دون أن يسلّم له دبلوم الدّراسات العليا في الإخراج السينمائي بسبب سوء تفاهم بينه وبين الأستاذ المشرف عليه..

كان يبدو أقلّ من سنه بكثير. رغم أن الصّلع بدأه من مقدمة رأسه، بينما انسدل شعره الأسود على رقبته. كان يرتدي سترة جلدية وسروال جينز، ومن على كتفه الأيسر تتدلىّ الكاميرا التي لا تفارقه منذ كان

يدرس بمدرسة الفنون الجميلة بالجزائر العاصمة.

- هاهي باريس التي كنت تحلم بها يا عليّ أما أنا فقد شبعت منها..

قال الجيلالي، ثم أشار بسبّابته إلى لوحة تأبينية أبي، وقال لعليّ:

- لوحة البرذون أريدها بأي ثمن.. عدني يا عليّ بحقّ الملح والصّداقة التي بيننا..

- هي لك أيّها البرذون حالما ينتهي المعرض..

كان عليّ يتابع زنايدا عندما سحبت كاميرا «كانون» من على كتف عابد، ابتعدت قليلا، وصوّبتها نحوهما، وفيما يشبه التواطؤ ابتسم لها قليلا، أما الجيلاني فقد ظلّ متجها ببصره إلى عليّ، ولم ينتبه إلاّ حين أومض الضّوء..

في المقهى الباريسيّ على ضفاف السين، راحا يستعيدان ذكرياتهما عندما كانا يدرسان بمدرسة الفنون الجميلة بالجزائر، تذكّرا أستاذ الخطّ العربي الحازم والصارم في معاملاته، واليوم الذي أطلق فيه لقب البرذون على الجيلاني، حين سأل الأستاذ عن معنى كلمة البرذون، فقال الأستاذ:

- البرذون، حاشاكم هو البغل. استعملت شعرته لقياس سمك أقلام الخطّ العربي..

فانفجر الجيلاني ضاحكا، ثم لم يتمالك الجميع أنفسهم من الضحك. ما اضطرّ الأستاذ إلى إخراجه من حجرة الدراسة. ومن يومها أصبح الطلبة يطلقون عليه اسم البرذون.

كانت باريس فرصة للصديقين كي يجدّدا عرى الصداقة التي جمعتهما مدة اثني عشرة سنة، بين الجزائر العاصمة وموسكو. كانا متلازمين خلالها لا يفارقان بعضهما البعض إلا لماما. تقاسما خلالها الحلو والمرّ، المسكن والدراسة..

في الحانة الباريسية الصغيرة راحا يستعيدان ذكريات طيشهما وشيطناتهما في شوارع موسكو وحاناتها، وشربهما للفودكا.. في ذلك اليوم شربا في صحّة زنايدا، التي كانت طوال تلك اللقاءات صامتة تتابع كلامهما باستمتاع دون أن تدرك منه الشيء الكثير. لأنّهما كان يتكلمان باللهجة الجزائرية، لكنّها كانت تضحك لضحكهما وتفتعل الجدّ والتأثر إذا رأتهما كذلك.

- تعرف لولا زنايدا لما استطعت تحمل باريس.. فهي كل ما أعطتني الحياة..

قال الجيلاني، وهو يرفع كأسه نخبها.

- هاهي باريس التي كنّا نحلم بها من زمان..أنا لم تعطني شيئا بل لقد قضت على كل أحلامي..

وراح يفضي بصوت ملؤه الحسرة والخيبة والإحباط:

- باريس ضاقت عليّ يا علي خوي.. جئتها منذ عشرين عاما هاربا من الفقر والبطالة بعدما ضاقت عليَّ بلادي، حالما بالشهرة والمال، وبأن أصبح سينمائيا كبيرا، لكنّني لم أحقق فيها شيئا، ويوما بعد يوم أزداد إفلاسا ويأسا، ولولا تلك النّقود التي أتلقاها من المؤسسة الصّغيرة التي أعمل بها لمتّ جوعا.. كل المشاريع والأفلام التي حلمت بها لم يتحقّق منها شيء، حلم وحيد ظل يراودني هو إنجاز شريط وثائقي عن الخطّاط الوزير ابن مقلة، وربما لقاؤنا هذا إشارة ربّانية بأن أمضي قدما في تحقيق حلمي.. لقد تنقلت مرّتين إلى العراق، أنجزت خلالهما صورا ولقطات من أعماق العراق تمكنت من بيع بعضها للمجلات ولوكالات الأنباء ..

- تعرف يا علي خوي - أضاف الجيلاني- لقد أحسست بشيء قويّ يشدّني إلى بغداد، ربما أدركت في لحظة ما، لماذا أصرّ جدي على أن يسمّيني باسم عبدالقادر الجيلاني، دفين بغداد وصاحب المقام والضّريح المشهور بها..

لاحظ الجيلاني تأثر على بإفضاءاته المريرة الحارقة، فأراد أن يغيّر مجرى الحديث:

- سأعود قريبا إلى بغداد..وأتمنى أن يقبلني تنظيم القاعدة مخرجا عنده..

ثم انفجر ضاحكا، ضحكا هستيريا اختلط بدموع كانت حبيسة، لم يستطع كبتها.. لم يوقفها إلا وهو يرفع كأسه نخب بغداد..

اكتشف عليّ حجم الخراب والإحباط الذي وصل إليه الجيلاني، وهما يتسكعان في باريس، ويكتشفانها بعيونه، وقد كان دليله فيها، وهو يتعرف على معالمها ومتاحفها، حين زارا متحف اللوفر كانت وقفته أمام الموناليزا لحظة استثنائية لم يعش من قبل مثيلا لها.

كان الجيلاني يشرح بطريقة العارف تاريخ اللوحة والاحتياطات الأمنية التي تتخذها إدارة المتحف لحماية صاحبة أشهر ابتسامة في العالم، التي ظلّت مثار الإعجاب والغيرة وحتّى الحبّ والهيام..

كان هناك حاجز يحول دون اقتراب الزوّار من اللوحة، وكان هناك حارسان بزيّ رسمي يقفان قريبا منها. راح الجيلاني يحدّثه عن المحن والطعنات والمقذوفات وحكاية السرقة التي تعرّضت لها عام 1911. وقد استنفرت الشرطة في كل أنحاء أوروبا لاستعادة اللوحة الكنز التي لا تقدّر بثمن.

بعد مرور فترة من الزمن تمّ العثور على اللوحة المسروقة في إيطاليا، وقد تبيّن للشرطة أن شابا إيطاليا يسمّى بيروجيا هو الذي قام بعملية السرقة.

زار الشاب الإيطالي باريس كي يسرّي عن نفسه بعد صدمته بوفاة حبيبته، وزار متحف اللوفر. وقف مليّا أمام الموناليزا، لأنه لاحظ فيها

شبها قويّا بينها وبين الفتاة التي كان يعشقها، لذلك فقد قرّر سرقتها والحصول عليها مهما كلّفه الثمن. ظلّ يتردّد يوميا على اللوفر. يتأمل الموناليزا مأخوذا بجمال ابتسامتها التي كان يرى فيها حبيبته الفقيدة.

اتّفق بيروجيا مع فنّان شاب على سرقة الموناليزا، فاختبآ في أحد مخازن المتحف في اليوم السابق لعطلة المتحف، وفي اليوم الموالي تسلّلا إلى أروقة المتحف واندسّا وسط العمّال المكلّفين بالتنظيف والصّيانة، ثم تسلّلا إلى لوحة الموناليزا ونزعاها من مكانها وحملاها إلى الخارج، فلم يعترض سبيلهما أحد ظنّا بأنهما من عمّال المتحف.

بعد مضيّ ذلك اليوم. انتبه عمّال المتحف إلى اختفاء اللوحة، فهزّ الخبر كل أنحاء فرنسا وأوربا، وقد تسبّب الحادث في وفاة اثنين من كبار موظفي المتحف نتيجة الصّدمة، وجنّد المحقّقون في كل مكان للبحث عن اللوحة. دون فائدة.

ما زاد من صعوبة العثور على الموناليزا هو أن بيروجيا لم يسرق اللّوحة لبيعها، وكان سينكشف أمره بسرعة لو فعل ذلك، لكنّه لم يكن أخذها إلا ليبعدها عن الأنظار، وأعين المعجبين لهوسه بحبها وغيرته عليها، وتماهيها مع حبيبته الميّتة.

بسبب الفقر والفاقة لم يتمكن بيروجيا من الاحتفاظ بالموناليزا طويلا، فقد أرسل إلى أحد المتاحف في فلورنسا رسالة يعرض عليهم الموناليزا دون مقابل، شريطة أن يعيّن حارسا عليها مدى الحياة كي

يظلّ قريبا منها.

أبلغ المتحف الشرطة بعرض بيروجيا، وما هي إلا أيام حتى قبض عليه واقتيد إلى فرنسا، حيث تمت محاكمته فلم ينكر التهمة، وتم الحكم عليه بعامين سجنا، لم يقض منهما إلا عاما واحدا، ثم أطلق سراحه بعدها..

لم يجد عليّ من تعليق على هذا الشرح الضافي، إلا أن قال للجيلا ني :

- كأنك كنت حاضرا مع بيروجيا ...

كان آخر لقاء جمع بين الصّديقين، بعد انتهاء معرض علي وعودته إلى أرض الوطن، في مسكن الجيلاني بالأستوديو الذي يشغله في باريس. حضر عليّ ومعه لوحة «تأبينية أبي علي» ملفوفة في ورق تغليف، فقد كان وعد الجيلاني بإهدائها إياه. وعاد أيضا بزجاجة نبيذ جزائري سلّمعا للجيلاني حال دخوله. حين فتحها الجيلاني وتفحّصها قال:

- شكرا على أنك لم تنس لوحة البرذون..وحسنا فعلت بإحضارك لهذا النبيذ الجزائري كي يقلل من غلواء الحنين للوطن...

كان الأستوديو غاية في الأناقة والجمال رغم صغره، فليس به سوى مطبخ صغير وغرفة للنوم، وبهو للاستقبال، تأمل علي تلك الصّور واللّوحات والتّحف الموجودة بالمكان، قال الجيلاني وهو في المطبخ

يعدّ عدّة الشراب:

- لا تستغرب هذه الأناقة فهي من لمسات زنايدا.. لقد أضفت على حياتي بعض الفرح والرغبة في الحياة..

- وهل تعيشان معا هنا؟

- لقد تزوّجتها وعقدت عليها في الحضرة الجيلانية في بغداد.. نعيش معا بعض الأيام.. ثم نفترق ونعود فنجتمع لكل منّا مشاغله وحياته، سأسافر إلى بغداد بعد أيام.. إنها مصرّة على خوض المغامرة من جديد.

- أكيد لأنها تحبّك حبا كبيرا ..
- ربمّا..

قال الجيلاني وهو يضع الكؤوس الثلاثة وزجاجة النبيذ الجزائري. حدس الجيلاني استغراب عليّ من إحضاره لثلاثة كؤوس، فقال:

- سنشرب نخب زنايدا ....أنا أمزح فهي ستحضر مراسيم الوداع بعد حين..

أحسّ عليّ فجأة بوطأة اللّحظة التي ستفرقهما من جديد، فأراد أن يغيّر مجرى الحديث قائلا، وهو يرفع كأسه نخب زنايدا:

- لست أدري ما الذي يعجبها في برذون مثلك ..
- أنا نفسي لا أعرف، ولو كنت أعرف ما كنت برذونا ..

فانفجرا بالضّحك معا حتى دمعت أعينهما، وتحول ضحكهما إلى سعال متقطع، حين زالت عنهما هذه النّوبة مسحا أعينهما وهما يعلمان أن كل ذلك كان ضحكا كالبكاء، كي لا يحدث ذلك فيما بعد. ثم قال الجيلاني:

-على ذكر البرذون. سأريك شيئا مهما... ثم أتجه إلى رفّ من المكتبة الصغيرة وعاد يحمل حافظة فوليو أنيقة، فتحها بعناية وأظهر لعلي نسخة من كتاب الهدنة بخط أبي عليّ ابن مقلة. لكنه لم يترك لعلي فرصة التساؤل:

- لا تندهش كثيرا فالعمل ليس أصليا، وإنما هو مجرّد عمل منسوخ، أنجزه خطّاط عراقي طلبته منه، في رحلتي الأخيرة إلى العراق، كي أستعمله في شريطي الوثائقي عن ابن مقلة، لكنني أتمنّى أن أتمكن من تصوير العمل الأصلي، وإذا أقتضى الحال سأسافر إلى تركيا..

- كأنه النسخة الأصلية ..

فأومأ الجيلاني بالإيجاب، وفي هذه اللحظة فتحت زنايدا باب الأستوديو بمفتاحها ودخلت عليهما معتذرة عن تأخرها، وجلست تشاركهما الشراب. نظر عليّ إلى ساعة يده، ثم قال:

- حسنا..علي أن أغادر إلى الفندق الآن، فأمامي طائرة في الصّباح الباكر.. هيا أترككما بخير، اعتنيا بأنفسكما..

تعانق علي والجيلاني بحرارة وتأثر، وقاوما أحاسيسهما المريرة بالفراق كي لا يجهشا بالبكاء على مرأى من زنايدا التي عانقت عليّ،

ثم أخرجت من حقيبتها اليدويّة بطاقة زيارة أعطتها لعلي قائلة:

- ربما تحتاج إليها.. من يدري؟

وهو يتفقد أرجاء الأستوديو متشاغلا عن مراسيم الوداع لحظات قبل مغادرته، مدّ علي يده دون وعي منه إلى مفكرة. كتب بحروف فرنسية مذهبة «أجندة 2009»، كانت موضوعة على كموند مواجه لباب الشقّة تعلوه مرآة مستطيلة .

تصفّح المفكرة بحركة سريعة، فوجد صفحاتها مليئة بالكتابة الفوضوية.ابتسم لعابد في المرآة غامزا:

- هذه علبة أسرارك السوداء أيّها الشقيّ ..

ثم أعادها إلى مكانها، لكن الجيلاني أخذ المفكرة ومدّها لصديقه قائلا:

- أنا ليس لي بطاقة أعطيها لك، وهذه المفكرة لم أعد بحاجة إليها لأنّها مجرّد مسوّدات أعدت نقلها على حاسوبي. أرجوك أن تحتفظ بها، ففيها كثير من أحلامي ويوميّاتي في بغداد. عذرا أنني لا أجد ما أهديه لك الآن، لكن أعدك بأن هديّتك ستكون عراقية وسأفاجئك بها يوما ما..

تردّد علي في قبولها، ولكنه قرأ في عيني صديقه ما جعله يدسّ بطاقة زنايدا في المفكرة البنيّة ويستدير باتجاه باب الخروج ..

***

في هذه اللحظة بالذات أدرك عليّ الجنوي حجم تقصيره في حقّ صديقه عابد الجيلاني، تأكّد بأنه لا يعرف عنه شيئا، وبأنّه لم يحاول فهمه ربما بفعل أنانيته التي حالت دونه ودون الإحساس بالقريبين منه ومشاركتهم ألمهم وأملهم، وفيما كان يوهم نفسه بأنه هو الأحقّ بالاهتمام، لم يكن قادرا على البذل والعطاء والمشاركة، وعلى فعل أي شيء تجاه الآخرين..

هذا ربما ما يفسر بقاءه كل هذا الوقت بلا أصدقاء حقيقيين، وحيدا متوحدا، ينظر إلى الآخرين بعين الاشمئزاز، غير قادر على نسج علاقات طبيعية وسويّة مع المحيطين به، لأنهم في نظره يمثلون التّفاهة بل إنّهم هم مصدر الجحيم على رأي سارتر.. هل يكون غرور الفنّ ونرجسيّة الفنّان هي التي طوّحت به في هذه الهوّة السّحيقة، أم ترى هي أشياء أخرى تجعله مقتنعا بأن الآخرين هم من يجب أن يدوروا في فلكه؟...

انتبه إلى أنه منذ لقائهما الأخير بباريس لم يكلّف خاطره أو يحدّث نفسه بالسؤال عن صديقه الجيلاني في غربته، ولم يحاول أيّ منهما التواصل مع الآخر بأي شكل من الأشكال، أي إحساس بالتّعاسة والخواء ينخر روحه في هذه اللحظة التي يقف فيها أمام حقيقة نفسه..

خمّن بأن كل هذا لا جدوى منه الآن، ويبدو أن الوقت قد فات على فعل ما يمكن أن يفيد في شيء، أو يقدّم أو يؤخر في ما آل إليه

الجيلالي من تورّط في تهمة قد تكون صحيحة، وقد تكون غير ذلك. لكن الغائب دائما مدان وعلى خطأ كما يقولون..

ما عساه يقول للمحقّق نافري الذي جاءه طالبا عونه معتقدا بأنه يملك الحقيقة، وبأنه سيجد عنده إجابات شافية قد تفيده في تحقيقه أو تضيء له بعض ما خفي عليه...

في قرارة نفسه كان قد قرّر بأن يصارح نافري بكل هذه الحقيقة التي لا يملك غيرها، حتى وإن كانت غير قابلة للتصديق، فلا أحد يمكنه أن يصدّق بأنه لا يعرف شيئا من أمر صديقه، ولا يملك أيّة معلومات قد تفيد في التحقيق..

وحتّى لو كان يعرف شيئا ذا بال يمكن أن يفيد في كشف الحقيقة، ربما كان سيتردّد في الإدلاء به لأي كان. حماية لصديقه ووفاء لأواصر المحبّة التي تجمعهما.. لكن كل ذلك لم يكن واردا، لأنه حقا لا يعرف شيئا.. وقد كفاه ذلك شرّ الكذب والتستّر على صديقه، وكفاه شرّ نفسه التي كان يمكن أن تضعف خوفا أو طمعا فيعترف بما يدين صديقه، في حال ما إذا كان يملك معلومات مهمّة تقود إلى معرفة الحقيقة..

5

عندما التقى عليّ الجنوي بالمحقّق نافري في موعدهما التّالي بكافتيريا فندق «ألف ليلة وليلة» لم يتردّد في مصارحته بكلّ ما كان قد جال بخاطره متأسفا له أشدّ الأسف عن عدم إمكانية مساعدته بأيّة معلومات كانت، وقد كان بودّه لو فعل ذلك، وقدّم له ما يجب، وما يستطيع..

لم يفاجأ المحقّق، وهو يستمع بانتباه إلى علىّ، ولم يبدر منه ما يدلّ على أيّ انزعاج، ولكنّه ابتسم وبادره بسؤال ماكر:

- سيّد علىّ معنى هذا أنك ترفض التعاون، وتحاول حماية صديقك، أنا متأكد أنك لا تملك فعلا ما يفيد تحقيقي، كما أنا متأكد من أنّك كنت ستخفي ما تعرفه بدافع المبدأ والصداقة التي تجمع بينكما، وثق أنني لا ألومك وأجد لك ألف مبرّر وعذر...

ثم واصل حديثه وهما يسيران جنبا إلى جنب، متّجهين إلى بوّابة الفندق.. ويأخذان الشارع الرّئيس باتجاه وسط المدينة..

- لدي رغبة في زيارة المدينة وآمل أن تقبل مرافقتي وتكون دليلي، خذني أولا إلى «عين الفوّارة»، ومنها إلى المتحف فأنت تعلم ولعي بالمتاحف والآثار.. تعرف سيّد على بالنسبة لي من يفكر في سرقة عمل فنّي هو فنّان بشكل ما، وليس سارقا بالمعنى الحقيقي، لأنه يدرك الأهمية المادية والمعنوية للأثر الذي قام بسرقته، حتّى وإن كان هدفه ماديا من وراء ذلك.. جرم السرقة ليس كذلك إلا تجاوزا، أنا ما يعنيني عادة في تحقيقاتي هو البحث عن الدّافع، وغالبا ما تنتهي مهمّتي بمعرفة الدافع الحقيقي، وليس من مهامي بالضرورة إعادة العمل المسروق.. فغالبا ما يتمّ العثور على الأثر المسروق، ولو بعد سنوات، وقلما يختفي الأثر إلى الأبد..

ثم تابع حديثه:

- لقد قمت بتحقيقات كثيرة عن الآثار المسروقة من المتاحف لفانين مشهورين مثل بيكاسو ومونيه وفون قوق، وكان الدافع الماديّ هو السبب الظاهر لهذه السّرقات التي انتهت كلها باستعادة اللوحات المسروقة نظرا لشهرتها، فمن السّهل التّعرف عليها ولكن هذه المرة الأمر مختلف. ويطرح تساؤلات كثيرة عن الدوافع الحقيقة من وراء السرقة، أكيد أن الهدف ليس ماديا، لأن أثر ابن مقلة «كتاب الهدنة» الذي سرق من متحف آيا صوفيا باسطنبول، ليس بذي أهمية مادية كبيرة، مثل اللّوحات الفنيّة الموجودة في متاحف أوروبا. بل له قيمة معنوية ورمزية كبيرة..

وهو ما جعل مصالح الإنتربول، ومن ورائها دوائر القرار السياسي تصرّ على البحث عن دوافع عملية السرقة، ومن يقف وراءها، ولحساب من..؟ وتلك هي المشكلة. لاسيما في الظروف الأمنية والسياسية والنزاعات والصراعات التي يعيشها عالم اليوم..

أنت تعرف بلا شك الفرضيات التي وضعتها الصحافة العالمية لعملية السرقة، وذهبت إلى أبعد الحدود بتحميل تنظيم القاعدة مسؤولية السرقة، التي كانت إيذانا بنهاية الهدنة بين المسلمين والغرب وبداية حرب عالمية دينية بين الإسلام والمسيحية، وليست أحداث الحادي عشر سبتمبر إلا شرارتها الأولى، وبدايتها الفعلية..

هذه ليست إلا مجرّد فرضيات وتخمينات قد لا تكون صحيحة، وربما يتبيّن بأنّ السرقة لم تكن إلا فعلا مزاجيا أو ناتجا عن هوس ما، لكن لدى الدوائر الأمنية والإستراتيجية لا شيء متروك للصدفة أو التّخمين، وكل شيء مهما كان يجب أن يؤخذ بالجديّة اللازمة..

كانا قد وصلا إلى «عين الفوارة» عندما أشار المحقق نافري إلى التّمثال المرمري قائلا:

- هذه هي بالتأكيد «عين الفوّارة» . لقد قرأت عنها وشاهدت صورها في الإنترنت.. هل يمكن أن ألتقط بعض الصور..؟

- بالطبع ..هناك اعتقاد راسخ يقول بأنّ من يشرب من عين الفوّارة سيعود إليها حتما..

- إذن أرجو أن تمسك عنّي الكاميرا، وتأخذ لي صورة وأنا أرتشف الماء البارد من تحت قدميّ هذه السيدة المرمريّة الجميلة..حتى أعود مرة أخرى إلى ستيفيس..

غادرا عين الفوّارة بحركتها وروّادها، ودلفا إلى باحة مقهى قريب منها، طلبا شايا بالنعناع وراحا يرتشفانه. في هذه الأثناء لاحظ عليّ بأن الضابط محمود كان يراقبهما عن بعد من وراء نظارته الغامقة ممتطيا سيارته الرمادية برفقة شخصين آخرين سرعان ما غادرا السيّارة وأخذا مكانا قريبا منهما ..

أخرج المحقّق نافري عليّ من شروده. قائلا:

- سيّد علي هل تسمح لي بسؤال؟

- بالطبع..

- أنتم مسلمون، تؤمنون بالحشمة ولا تحبّون العري، وأرى أن هناك عائلات ونساء وفتيات محجبات ومراهقين يتواجدون حول عين الفوّارة، يشربون ويلتقطون صورا تذكارية.. ألا ينتبهون إلى عري تمثال المرأة؟

- لا أدري حقا كيف أجيبك سيد نافري، ما يتناقله النّاس هنا

هو أن حاكم المدينة العسكري قد انزعج من تردّد الناس على المسجد العتيق القريب من عين الفوارة وكانوا يقصدون العين للوضوء، فأراد أن يثنيهم عن ذلك، بأن صنع لهم تمثالا لامرأة عارية كي يفتنهم ويفسد عليهم عبادتهم، كما يتناقل النّاس بأن أحد العاشقين العسكريين أراد تخليد صورة حبيبته فطلب من نحّات أن ينجز هذه المنحوتة البديعة.. أكثر من هذا هل تعلم أن سكان المدينة حزنوا كثيرا عندما قامت جماعة من الإرهابيين بتفجير التّمثال، خلال فترة التسعينيات، لكن تمّ جمع شظاياه وترميمه في وقت وجيز...

عندما وصلا إلى المتحف الجهوي للآثار كان محافظه في انتظارهما، وقد أخذهما في جولة بكلّ جوانب المتحف، مستفيضا في الحديث عن تاريخ «سيتيفيس» وآثارها الرّومانية والعربية الإسلامية، كان أهمّ ما شدّ المحقّق نافري، الذي قدّمه على أنه صحافي وصديق فرنسي مهتمّ بالفن، هو الفسيفساء الرّوماني متمثلا في فسيفساء كبيرة تمثل «موكب باخوس» إله الخمر عند الإغريق والرّومان، ذكر بأنّها من أهمّ لوحات الفسيفساء في العالم، ولم يمض وقت طويل على انتهاء عملية ترميمها بمساعدة خبراء ومختصين من إيطاليا.

ما حدا بالمحقق نافري إلى التعليق..

- جميل أن يكون لديكم هذا الشغف بالفنّ رغم أنّه يتنافى مع قيمكم التي تعارض العري وشرب الخمر..

وهما يجلسان على طاولة بالمطعم الذي اختاره عليّ ليؤدي واجب الضيافة تجاه المحقق نافري، وقد قبل دعوته على العشاء بكل فرح وسرور، اعتذر له وتمنّى لو أن هذا العشاء كان ببيته، لولا غياب زوجته عند أهلها بسبب مشاكل حملها..

أخذ الحديث منحى حميما استرجع فيه كلاهما بعض ذكرياتهما وصداقاتهما..

فكان هذا فرصة ليتحدّثا عن عابد الجيلاني. وقد استعاد عليّ بعض ذكرياته معه حين كانا يدرسان بمدرسة الفنون الجميلة بالجزائر العاصمة أو بالمعهد العالي للفنون بموسكو، فقد بادر المحقّ نافري بالقول:

- تعرف سيّد عليّ لقد صدّقتك حين قلت لي بأنك لا تملك ما يمكن أن يفيدني من معلومات، بخصوص تحقيقي حول الجيلاني عابد، ففي شقّته بباريس لم تجد الشرطة أي شيء يخصّك أو يدلّ على صداقتكما، لا اسم ولا رقم هاتف، ولا عنوان أو أيّ شيء آخر. باستثناء صورتكما معا أمام اللّوحة التي اضطررنا لتكبيرها لمعرفة اسمك من خلال التوقيع، ولو كانت بينكما أيّة مراسلات أو مكالمات هاتفية لأخذت الشرطة علما بها، لا تتصور أنّني وصلت إليك بسهولة، لقد بذلت جهدا كبيرا لكي أهتدي إليك.. الغريب هو أنّني لم أجد للّوحة أثرا على الإنترنت.. هل مازالت بحوزتك؟

فأجاب عليّ:

- لقد بيعت بعد المعرض مباشرة. اشتراها منّي رجل خليجي لا أعرف اسمه. فضل التكتّم على هويته..

لم يفهم عليّ ما حمله على هذه الكذبة، وكيف انبثقت الفكرة أصلا في ذهنه، في لحظة خاطفة دون حساب للعواقب والتبعات.. ربما هي غريزة الإحساس بالخوف على نفسه وصديقه. ربما حدس عليّ في لحظة ما بأن المحقّق نافري لم يكن صادقا معه بما يكفي في ادعائه صداقته، وأنّه كان يمثل كل تلك المشاعر الحميمة لكي يأنس إليه من أجل أن يوقع به ويعرف منه ما يريد. لذلك قرّر أن يلاعبه، ويسدّ عليه كل منفذ يمكن أن يقوده إلى التأكد من الوساوس والشكوك التي كانت تساوره.

حين فكّر علي فيما بعد في كل ما دار بينهما من حديث تأكد له بأنّه ليس أكثر من متّهم تحوم حوله شكوك الضّلوع والتورط أو التستر في أسوء الحالات.

راحت الوساوس تنهش رأسه بأن المحقّق قد يكون على علم بأمر اللوحة التي أهداها لصديقه الجيلاني مباشرة بعد معرض باريس. بل وربما يكون شرطيا في زيّ صحافي أو حتّى رجل مخابرات. ولو أنّه راجع إدارة المعرض لتبيّن له بأن اللوحة لم تكن ضمن اللّوحات التي بيعت آنذاك. لكنه قرّر أن يبقى مصرّا على أنه باعها لثريّ خليجي فضّل أن يبقى مجهول الهويّة.

6

بات على ليلته آرقا، يتقلّب ويقلّب الأمور على كل وجوهها. يستعيد كل التفاصيل القريبة والبعيدة، محاولا أن يفهم إصرار الجيلاني في الحصول على لوحة «تأبينية إبن مقلة» وما عساه فعل بها، مادام لم يحتفظ بها في بيته. ولم تجدها الشرطة في شقّته بباريس. ربما كان يعيش ضائقة مالية وتعفّف أن يطلب منه مالا هل يكون باعها؟ بالتأكيد لا؟ فهو لن يجرؤ على بيع هديّة من صديق قاسمه الملح والذكريات، فما الدافع الذي حدا به إلى أن يطلب منه تلك اللّوحة بالذات دون غيرها من لوحات المعرض. ما الذي كان يدور برأسه؟

فكّر في أنه لولا طلب الجيلاني ما كان ليفكر في أن يهديه لوحة من لوحاته، فما بالك بأهمّ لوحة في المعرض. هل كان الجيلاني يدرك فعلا جماليات هذه اللّوحة وأنها هي حجر الزاوية في كل ما أبدع عليّ.. هل هوسه بابن مقلة هو الذي دفعه إلى اختيار هذه اللوحة، كي يستعملها في شريطه الذي يخطّط لإنجازه؟

فكر أنه في الغالب كان سيعتذر له بأيّ عذر كان، أو حتّى دون أن

يحتجّ بأية حجّة مقنعة، فعلاقتهما القديمة والكلفة المرفوعة بينهما كانت تتجاوز أي تفكير في مجاملته، ولولا خوفه من أن يكسر خاطره أمام زنايدا، بعد عشرين سنة من القطيعة لكان تردّد في أن يلبّي طلبه..

كيف فاته أن يسأله عن سرّ إلحاحه، وما يزمع أن يفعل بها؟

قفزت إلى ذهنه فكرة العودة إلى المفكرة التي أهداها إياه عابد الجيلاني بباريس فربما وجد فيها شيئا يساعده على فهم ما يحدث، وجد صعوبة في العثور عليها وسط ركام من الأوراق والوثائق والجرائد.. راح يتصفحها ويقرأ ما بها من يوميات ومذكرات كتبها عابد في رحلته إلى بغداد، وبعض المقاطع من مشروع شريطه الوثائقي عن الخطّاط أبي علي ابن مقلة..

الخميس: 9/6/ 2009.

«.....أخيرا، هذه بغداد التي حملتها في قلبي وفي ذاكرتي، أقف على صعيدها مفتونا مسترجعا تاريخا من الحضارة والشّعر والحكمة، غير مصدّق أنني أقف على ترابها كي أعانق ذات السماء، وأتنفّس ذات الهواء الذي تنفسه شيخي عبدالقادر الجيلاني..

بمجرّد أن حجزت بفندق الرّشيد، تركت زنايدا وقد استسلمت لنوم عميق، وهرعت إلى حيّ «باب الشيخ»، حيث ضريح عبدالقادر الجيلاني.. هذا مزاره قدّس الله سرّه بقلب بغداد، أردت أن يكون أوّل

محطّة لي في هذه الزيارة التي كانت حلما طالما راودني، وأنا أقف على ضريحه تملّكتني رهبة كبيرة ورحت أتملّى بعيني جلالة المكان ووضاءته والإزارات الخضراء بزخارفها وكتاباتها المذهّبة...

أحسست بألفة كبيرة تجمعني بالمكان، وبأنني لست غريبا عنه، حتّى خادم الحضرة، استأنس إليّ، بعد أن أخبرته بأنني من أبناء الزاوية القادرية بالجزائر، وأنني سميّ البازي الأشهب، وقد سمّاني جدّي الجيلاني، تيمنا باسم هذا الصّوفي الربّاني والغوث الرّوحاني، وراح يحدّثني عن علاقته بشيخ الطريقة القادرية بالجزائر الذي سبق له وأن زار المقام منذ سنوات..

أخبرني بأنه يتوق إلى زيارة مقام أبومدين الغوث بتلمسان، لأنه رآه في إحدى مرائيه، وهو يصافحه بيده اليسرى، وقد أشاح عنه بوجهه، ففهم من ذلك أن الغوث غاضب عليه، ولذلك فهو يتحيّن الفرصة لزيارة ضريحه.

كان أبو مدين ممن خاضوا معركة حطين كجنديّ في جيش صلاح الدين الأيوبي ضدّ الصليبين عام 583 ه، الموافق 4 جويليه 1187 م، وبها قطعت ذراعه، ودفنت ببيت المقدس وصارت زاوية تزار.

عرفانًا منه ببسالته في الذّود عن القدس، أوقف السلطان الأيّوبي حارة للمغاربة بالقدس الشريف، كانت تديرها عائلات من أصل جزائري إلى أن تمّ تدميرها بعد احتلال القدس عام 1967. بعد

تسعة قرون من الشهادة على أن الغوث مرّ من هنا وأن دمه سال على الأرض المغتصبة، وبها ترك جزء منه، ذراعه الشريفة.

في رحلته الوحيدة إلى البقاع المقدسة التقى الشيخ عبدالقادر الجيلالي الغوث أبي مدين شعيب فألبسه الخرقة، ولقّنه الاسم الأعظم، وكان الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي يسميه شيخ الشيوخ ويقرّ له بمقام القطبية. ومما يرويه أهل الأسرار والخاصة من الصوفية أن الغوث أبا مدين بلغ مقام القطب ساعات قبل موته، وهي أعلى مقامات الصّوفيه، فخلع عنه مقام الإمامة، ليلبس خلعة القطبية. وكان آخر كلامه قدّس الله سره: الله حيّ.

كان أبو مدين الغوث قد استقرّ ببجاية بعد سياحة طويلة في أرض الله الواسعة مشرقا ومغربا، وانقطع للخلوة وتلقين مريديه الكثر أسرار طريقته الصّوفية إلى أن دعاه السلطان الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور إلى مرّاكش، للنظر في الوشايات التي وصلته، وحين وصل إلى تلمسان توفيّ بضاحية العباد حيث قبره المشهور، الذي شيّد حوله المرينيون جامعا فصار معلما صوفيا، يؤمه الزائرون ويحفّ به المتبركون حتى اليوم.

ثمّ حكى لي بحرقة عن الانفجار الذي تعرّض له ضريح الجيلاني عن طريق سيّارة مفخخة عام 2007، وأدّى إلى هدم كثير من جدرانه وهياكله، وألمح إلى أن الوهّابية قد تكون وراء هذا العمل الذي راح ضحيّته ما يزيد عن العشرين شخصا، وعشرات الجرحى من روّاد المقام وزائريه»..

الجمعة: 2007/09/07.

في اليوم الثّاني صحوت متأخرا، كانت زنايدا بانتظاري في بهو الفندق، خرجنا إلى شارع الرشيد راجلين، مشينا دون هدى، دلفنا إلى مقهى صغير على ضفاف نهر دجلة، طلبت قهوة تركية، بينما أخذت زنايدا كاميرتي وانشغلت بأخذ بعض الصّور للنهر وما يحيط به من أبنية ونخيل..

أخذت رشفات من قهوتي، ثم أجلت طرفي حول المكان، قفزت إلى ذهني ذكريات التتار حين غزوا بغداد ورموا بمخطوطاتها في النّهر، كي يعبروا عليها من ضفّة إلى أخرى، حتّى صار ماؤه أسود بلون الحبر..

تذكّرت مشهد قطع يد الوزير الخطّاط أبي على ابن مقلة، ورميها في نهر دجلة. يده التي أبدع بها ما أبدع من روائع الخط، وقد قال عنها للطبيب ثابت بن سنان بن ثابت بن قرّة «يد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاث خلفاء، وكتبت بها القرآن دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللّصوص؟»..

تسيطر عليَّ دائما فكرة مصير هذه اليد، وما آلت إليه، أقول لو كان لي أن أحقّق مشروع فيلمي عنه، لبدأته بمشهد فنتازي، مشهد صيّاد بغدادي تعلق بشباكه اليد المقطوعة النازفة، فيسحبها معتقدا أنها سمكة لكن سرعان ما يتبيّن له أنها يد، فيهرع بها إلى أحد أئمة بغداد،

فلا يكون أمام هذا الإمام إلا أن يصلّي عليها ويقيم لها جنازة مهيبة، لعلمه بأنها يد ابن مقلة التي كتب بها القرآن مرتين، وقد اهتزت بغداد لفاجعة قطعها من طرف الخليفة الراضي..

يطالعني تمثال المتنبّي شامخا في كبرياء، رغم المحن والملمّات التي يمرّ بها العراق منذ حرب الخليج الأولى والثانية، يمدّ يده في الأفق كأنما ينشد الإنسانية إحدى قصائد العصماء التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، أنعطف إلى شارع المتنبّي حيث حركة الجمعة الدؤوب، الورّاقات تتزاحم على طرفيه. الكتب تملأ الأرصفة ورائحة الورق تزكم الأنوف الحسّاسة، أقف أمام مكتبة نعيم الشطري، وبعد أن يفرغ من إنشاد شعر الجواهري، أساله عن نسخة من كتاب «ابن مقلة خطاطا وأديبا وإنسانا». يعدني بنسخة مصوّرة منه الأسبوع المقبل.

أسأله إن كان يعرف مؤلف الكتاب هلال ناجي معرفة شخصيّة، أو عنوانه أو هاتفه قصد اللقاء به من أجل إنجاز شريطي عن ابن مقلة، فيجيبني بلهجته البغدادية..

- ولو....

ثم نفترق على موعد..

السبت: 2009/09/08.

وجدتني مستلقيا على السّرير، بعد قيلولة، لم أدر كيف غافلتني بعد صبيحة متعبة، قادتني إلى بعض معالم بغداد السّياحية والأثرية، من غرفتي بالفندق طلبت من عاملة الهاتف أن تصلني برقم داخليّ في بغداد، أمليته عليها من مفكرة قديمة، وأنا أشعل سيجارتي، آملا أن يجيبني بما يسرّني، بعد لحظات أحسستها طويلة مملّة من فرط الترقّب واللّهفة، جاءني الردّ من الطرف الآخر في شكل صوت أنثوي:

- ألو مرحبا بك ..
- مساء الخير هل هذا هو رقم السيّد سعد السماوي.
- من حضرتك؟

- أنا الجيلاني عابد، صديق قديم من الجزائر، درسنا معا في موسكو من عشرين سنة، ولديّ رغبة في أن أراه.. هل يمكن أن تخبريه أنني موجود في فندق الرشيد؟

- مع السلامة ..

كنت أريد أن أستوضح منها أكثر لكن الخطّ انقطع وبقيت أسئلتي عالقة مبهمة..

فكّرت في حالة الرّعب والرّهاب التي تخيّم على شوارع بغداد، رغم إصرار العراقيين على التشبّث بالحياة والفرح، لذلك فإن الحياة تبدو

في الظاهر طبيعية وعادية، لكنّ هناك خوف يسكن العيون ويحول دون التعبير عن الفرح في أقصى حالاته. ربما ما مرّ به العراق منذ بداية التسعينيات علّم الإنسان أن يكون متوجّسا من المجهول، بل وعدوانيا أحيانا كثيرة، ربما هذا ما يفسر صرامة هذه المرأة التي حادثتها في الهاتف، وتحفظها في مكالمتي المقتضبة معها، فلم تترك لي فرصة إنهائها كما يجب. وأنهتها دون أن أتمكن من معرفة هويّتها، وهل هي زوجة صديقي سعد أم قريبته، أم امرأة أخرى؟ بقيت حائرا أتساءل إن كان بالفعل هذا هو رقم صديقي أم أنّني مخطئ؟ وقد يكون غيّر رقم بيته بعد مرور كلّ هذه السّنوات..

الأحد:2009/09/09.

رغم أن الحياة بدأت تعود إلى سابق عهدها، وبدأت بغداد تتعافى من محنتها الطّويلة، إلا أن تفجيرات السيّارات المفخّخة ظلّت تهزّ سماءها من حين إلى آخر، فمنذ فترة هزّ انفجار مهول شارع المتنبّي محدثا أضرارا بليغة في بناياته ومكتباتها، ولذلك بقي مهجورا خاليا من الحركة والحياة لشهور عديدة..

كان حضور زنايدا مهمّا لي، كانت تجتهد في التقاط الصور والمناظر والأماكن والأشخاص بحسّ الفنّانة، وقد كانت تقوم بذلك بكل عفوية وتلقائية دون حساب لما يترتّب عن ذلك من عواقب، ودون اعتبار أن

الكثيرين يرفضون التّصوير، وأن يكونوا هدفا لعدستها، لاسيما إن كانوا يعتقدون بأنها أمريكية، وكنت أتدخل في كل مرّة موضحا لهم بلغة عربية بأنها مرافقتي، وبأنني جزائري عربي، ولا خوف منها.

كنت أرجو أن تساعدني تلك الصّور في إقناع مديري بمؤسسة التّصوير التي أعمل بها في باريس بتمويل إنتاج الفيلم الوثائقي الذي أنوي إنجازه عن ابن مقلة..

كثيرا ما كانت تتعرّض لمعاكسات وتعليقات كنت أتجاوزها على مضض، إلا مرّة واحدة علّق فيها أحدهم بالقول:

- قنبلة موقوتة...

ومدّ أصابعه بعد تقبيلها باتجاهها.

فلم أتمالك نفسي إلا وأنا أباغته بضربة من رأسي على وجهه حتّى أسقطته أرضا. ثم اشتبكت معه في عراك قادنا نحو أقرب مخفر شرطة.

حين أخبرت الضّابط الذي قام بتحرير محضر الواقعة بسبب الشّجار، وبأنني جزائري، ابتسم وقال لي:

- أنتم الجزائريون هكذا تحبّون الضرب بالرأس مثل زيدان.. من حسن حظّك أن خصمك معروف بسوابقه وانحرافه..

ثم أسرّ لي بأن مرافقة امرأة أجنبية جميلة، يحتاج إلى أخذ مزيد من الحيطة والحذر، وإجراءات أمنية يمكن أن يؤمنها لي إذا شئت.. فشكرته معتذرا بقرب موعد مغادرتنا بعد أيام قلائل بمجرّد معاينة بعض الأماكن وضبط بعض المواعيد.

ونحن نعود إلى فندق الرشيد، سألتني زنايدا عن معنى الكلمة التي تلفّظ بها الشاب، وأثارت غضبي، فأفهمتها بأنه يتشهّى مؤخرتها، فابتسمت ابتسامة ماكرة، وقالت:

- هل تغار عليّ إلى هذه الدرجة؟

في تلك اللّيلة لم أتمكن من النّوم، طرقت باب غرفة زنايدا في وقت متأخر، وما إن فتحت لي حتى طوّقت قامتها بذراعيّ، عانقتها بقوّة ورحت أقبّلها في كل مكان، قضيت معها ليلة مضاجعة عنيفة، كما لم أفعل من قبل، بكل العنفوان الذي فيّ، محاولا أن أقنع نفسي بأنني لم أفعل ما فعلت بدافع الغيرة عليها. لماذا لم أنتبه كل هذا الزمن إلى كلّ هذا الحبّ الجارف تجاهها..

الاثنين: 2009/09/10.

عندما خرجت من كافتيريا الفندق في حدود السّاعة العاشرة صباحا، بعد تناول فطور الصباح، أشار لي عون الاستقبال بأنّ هناك من ينتظرني ببهو الفندق، وحين تلفتّ تفاجأت بوجود سعد

السّماوي يبتسم لي:

- مفاجأة.. أليس كذلك يا صديقي الجيلاني؟

تعانقنا للحظات، ثم التفتُّ إلى زنايدا:

- زنايدا .. أكيد تعرفها..

أسرّ سعد في نفسه إعجابه القديم بزنايدا، ومنافسته لي على قلبها، اكتفي بمصافحتها، وبنظرة خجولة وعاجلة إليها..

لم يتغيّر سعد كثيرا مازال بسمرته، وبنيته النحيلة، وقامته الفارهة، غزا الشيب شاربه المتوحش، رحنا نتذكر شقاواتنا ونزقنا ومغامراتنا أيّام دراستنا معا. ونضحك ضحكا هستيريا. لفت انتباه الموجودين بالمكان. في حين كانت زنايدا تكتفي بالابتسام ..

اقترح سعد أن يأخذنا في جولة بسيّارته، وما هي إلا دقائق حتى كان ثلاثتنا نستقلّ سيارته المرسيدس ذات الطراز الألماني، مطوفين في شوارع بغداد وجسورها وحواريها..

قال الجيلالي:

- لقد سقطت عليّ من السماء، فلم يكن لديّ ما أفعله اليوم..

- لم أصدّق حين أخبرتني زوجتي بأنك هتفت لي.. ليس معقولا أنك بعد كل هذا الوقت مازلت تحتفظ برقمي..

- أنا أتابع أخبارك الفنيّة ومعارضك هنا وهناك.. وأنا سعيد بالنجاحات التي تحقّقها..

- من المفروض أن أكون في الجزائر بداية العام القادم للمشاركة في بينالي الفن العربي بمتحف الفن المعاصر.. ماذا بخصوصك أنت، وأي ريح حملتك على المخاطرة بالحضور إلى بغداد؟

أنا أحضّر لمشروع فيلم وثائقي عن ابن مقلة، وأعوّل كثيرا على مساعدتك، بما تستطيع.. لقد هاجرت إلى باريس هربا من الإرهاب وبحثا عن أفق أرحب من بلدي، وأنا أعمل في مؤسسة للتصوير والإعلان.. بعد سنوات طلبت من زنايدا أن تلتحق بي ونحن نعيش معا..

دعانا سعد لتناول الغداء بأحد المطاعم التقليدية، وكانت الوجبة مزيجا من اللبن والجبن والخبز الطّازج.. تشعب بنا الحديث عن الفنّ والآثار العراقية التي نهبت منذ دخول الأمريكيين إلى بغداد من طرف اللّصوص والمهرّبين العرب والأجانب. حتى صارت المتاحف العراقة خاوية بعدما كانت عامرة بآلاف القطع والتّحف التي تؤرخ لتاريخ العراق منذ بناء أوروك وبابل وحضارة السومريين إلى الفتح الإسلامي، حين أصبحت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد العباسيين..

كان سعد يعمل بأحد هذه المتاحف، وقد أصبح شبه عاطل،

بسبب هجر السّواح وقلّة مرتاديها من جراء الحروب التي يعيشها العراق منذ فترة . لذلك فقد تفرّغ للرسم ولأعماله الفنية التي جعلت منه أحد أهمّ فنّاني العراق...

الثلاثاء: 2009/09/11.

وقفت أمام محلّ الكتبي نعيم الشّطري برفقة زنايدا التي كانت تمسك بمرفقي، مخافة أن تضيع في زحمة شارع المتنبّي، لمحته ينشد قصيدة للشاعر الجواهري أمام حلقة من المارة والفضوليين، حين رآني تقدم إليّ وبيده نسخة من كتاب ابن مقلة الذي وعدني به..

ثم صحبني إلى مقهى «الشابندر»، حيث ضرب لي موعدا مع مؤلف الكتاب هلال ناجي، الذي كان يجلس في زاوية بالمقهى برفقه صديق له، ممسكا بطرف أرجيلة وأمامه طاولة واطئة بها فناجين قهوة وكتب، قدّمني نعيم إليه، واستأذن في الانصراف لشؤونه.

كان المقهى القديم غاصّا بالمثقفين والكتّاب ونخبة المجتمع العراقي، من الذين حوّلوه إلى فضاء يلتقون فيه من أجل تبادل الأفكار والاطّلاع على جديد الأدب والكتابة، ضاجّا بالحديث والضحك على خلفية المقام العراقي المنبعث من قارئ الأقراص..

أخرجني ناجي هلال من شرودي بقوله:

- ياهلا بالجزائر، ماذا تشربان أولا؟ قهوة بسكّر زيادة، وسط ولا بدون سكّر..

- قهوة وسط لي، وسكّر للمدام ...

- أخبرني نعيم بأنك تريد إنجاز فيلم وثائقي عن ابن مقلة، وترغب في مساعدتي. حقيقة الفكرة طيبة وجديدة لم يسبق لأحد أن فكّر في الأمر رغم أهمية الرجل، كثيرا ما أقول بأنه حقّق ما لم يحقّقه الشاعر الأكبر أبو الطيّب المتنبّي، حتى وإن دفع غاليا ضريبة طموحه وأحلامه المجنونة. لكن التاريخ ظلمه ولم ينصفه..

يبتسم ناجي هلال ثم يقول:

- الحقّ هو أنه الأولى باسم هذا الشارع من المتنبّي... ولو كان الأمر لي لسميته شارع ابن مقلة.. ممكن تقول لي بماذا يمكن أن أساعدك؟

- لقد أعطاني نعيم الشطري نسخة من كتابك «ابن مقلة خطّاطا وأديبا وإنسانا». آمل أن تساعدني على كتابة السيناريو والتعليق، كما أنني أتمنّى أن أسجّل شهادتك عن ابن مقلة فأنت أكثر من يعرفه..

- لقد أنجزت أيضا تحقيق لرسالته «في الخط والقلم»، وفيها وضع أسس الخطّ العربي لأول مرّة.. لو تزورني في البيت

سأعطيك نسخة منها ..

أخرج ناجي هلال بطاقة زيارة وأعطانيها قائلا:

- أنتظر زيارتك متى شئت. وستكون ضيفي أنت وزوجتك..
- غدا مساء. إذ كان ممكن ..
- أوكي حبيبي.

الأربعاء: 2009/09/12.

استقبلني هلال ناجي في بيته بحيّ الأعظمية، وأدخلني إلى مكتبته الزّاخرة، أعطاني نسخة من تحقيقه لرسالة ابن مقلة، ثمّ راح يستفيض في الحديث عن حياته وفنّه وأشعاره ومحنته بقطع يده اليمنى، فكان أن برع بالخطّ بيده اليسرى، ثم قُطع لسانه، ومات في السّجن. خشيت أن لا يتوقف عن الحديث فقاطعته سائلا إياه:

- هل هناك آثار فنية لخطوط ابن مقلة؟

- ترك ابن مقلة مدرسة في الخطّ بعده، وله في الخطّ رسالة مخطوطة موجودة، لكن أثاره الخطيّة ضاعت، ولم يبق منها سوى مصحف واحد محفوظ في متحف هراة بأفغانستان .

- وماذا عن كتاب الهدنة الذي مازال محفوظا بمتحف آيا

صوفيا بأسطنبول؟

- قرأنا في كتب كثيرة خبر كتابته لكتاب هدنة بين المسلمين والروم، وبقي الكتاب إلى زمن السلطان محمد الفاتح حيث فتح القسطنطينية سنة 1452م. وقد يكون هذا الكتاب سبب شهرته ودخوله عالم السياسة، وما حقّقه بعدها من جاه وتقلّد للوزارة لثلاثة من الخلفاء، وما وقع له بعدها من مكائد ودسائس دفع ثمنها غاليا. فقد جاء في كتاب ثمار القلوب ما يلي: «كتب ابن مقلة كتاب هدنة بين المسلمين والروم بخطه، وهو إلى اليوم – أي زمن الثعالبي سنة 429 هـ – عند الروم في كنيسة قسطنطينية، ويبرزونه في الأعياد، ويعلّقونه في أخصّ بيوت العبادات، ويعجبون من فرط حسنه وكونه غاية في فنه». لكنّني أرجح أن يكون العمل الأصليّ قد ضاع، أما الكتاب الموجود حاليا باسطنبول فما هو إلا نسخة مزوّرة..

- كيف عرفت؟

- لقد رأيته حين زرت تركيا ولديّ نسخة مصوّرة عنه، يمكنك أن تراها تختلف عن خطّ مصحفه وخطّ رسالته التي حقّقتها، وحالته تدلّ على أنّه أنجز في وقت متأخر ..

- هل تستطيع أن تدلّني على خطّاط ماهر يستطيع أن ينجز لي نسخة مقلّدة عنه.

- سوف أتدبّر الأمر بنفسي مع خطّاط أعرفه.. وستجد النسخة عندي..

الخميس: 2009/09/13.

لست أدري حقا ما الذي قادني إلى هذه الحالة، وفيم كنت أفكر؟ ذهني مشوّش حدّ الشلل والبياض.

قضيت اليوم كلّه في غرفتي لم أغادرها، مكتفيا بالتدخين وبطلب قهوة أحضرها لي نادل الفندق، حين طرقت زنايدا باب غرفتي فتحت لها، أخبرتني بأنها قلقت علي لأنّني لم أنزل، ولم أجب على الهاتف، اقترحت عليّ النزول إلى العشاء أو إلى حديقة الفندق، لم تجد أدنى تجاوب منّي في الحديث إليها، بقيت للحظات ثم غادرت، حين لاحظت شرودي، كأنها حدست رغبتي في الاختلاء بنفسي. أو ربما تكون قد أحسّت بالذّنب بسبب ما أنا فيه، خيّل إلي أنها غادرت دامعة العينين..

الجمعة: 2009/09/14.

نهضت متأخرا لأنني لم أنم طوال الليل، لم أستطع مغادرة سريري حتى وقت الظهيرة، طلبت زنايدا في غرفتها، نزلنا معا إلى الغداء، تفاجأت بمزاجي المختلف عمّا كان عليه أمس، وعدتها بمفاجأة سارة..

هتفت إلى سعد بأن يوافيني إلى الفندق مساء، عرّجنا على بعض

المحلاّت، اشتريت خمارا وعباءة، وقطعتي ذهب، ثم كانت وجهتنا إلى باب الشّيخ حيث ضريح عبد القادر الجيلاني..

كان خادم الحضرة الجيلانية في مقصورته منخرطا في ورده وأذكاره. عندما طرقت عليه بابه وقطعت عليه خلوته، هشّ لرؤيتي، ولكنّه تفاجأ حين أخبرته بأنني أريد منه أن يعقد قراني على زنايدا حتّى تصبح زوجتي، لأنّي أعيش معها منذ سنوات دون عقد شرعيّ.. تردّد قليلا، ألححت عليه لأنني سأكون سعيدا بان يتمّ الأمر يوم الجمعة، وفي حضرة سيّدي عبدالقادر الجيلاني..

سألني إن كان لديّ شهود .التفتُّ إلى سعد الذي كان مندهشا من المفاجأة، ففهم أني أريده شاهدا، ولم يملك غير الإيماء برأسه إيجابا..

نده خادم الحضرة على أحد معاونيه، تناجيا برهة، ففهمت بعدها أن الرّجل قبل بأن يكون هو الشّاهد الثّاني على عقد قراني على زنايدا..

سألها إن كانت راضية بالزّواج مني، فترجمت لها سؤاله، لكن الدّهشة عقدت لسانها فطأطأت رأسها، ولاذت بالصّمت، بدا لي خدّاها أكثر احمرارا ممّا عهدتهما، وتجلّت لي كأجمل ما تكون، وهي ترتدي الخمار والعباءة العراقية..

و أنا أودعه، أعطيت خادم الحضرة بعض المال، ووعدته بمعاودة

الزّيارة، راجيا منه الدّعاء لي بكل ما يسرّ الخاطر ويبهج الروح..

حين أغلقت علينا باب الغرفة همست في أذن زنايدا:

- ما رأيك في المفاجأة؟ أمس كان عيد ميلادي الخمسين، ولذلك كنت مكتئبا، آليت على نفسي أن لا أحتفل به إلا وأنت زوجتي على سنة الله ورسوله، وفي حضرة سيدي عبدالقادر الجيلالي...

- أنت فعلا مجنون.. قالت زنايدا وأنا ألبسها الخاتم الذّهبي، وأمسك بيدها، عابثا بأصابعها النّاعمة..

الأربعاء: 19/ 9/ 2009.

ها أنا أستقلّ الطائرة عائدا إلى باريس. قبل أن أغادر بغداد. كانت الأيّام الأخيرة أيّام عسل، سرقتها من أحلام ألف ليلة وليلة، قضيتها مستمتعا بحفيف الجسد وهفيف الرّوح معا، هائما في أزقّة بغداد وشوارعها برفقة زنايدا.. لم يتخلّلها غير لقائي بهلال ناجي، الذي سلّمني نسخة كتاب الهدنة، ووعدني بمسوّدة تعليق عن حياة ابن مقلة. تحدثنا مرة أخرى عن كتابه ابن مقلة خطاطا وأديبا وإنسانا، حياته العاصفة، المتقلبة بين اليأس والطموح، الشقاء والبذخ، السلطة والمعارضة، كنت أريد أن أسأله عن تفصيل صغير، جزئية

خفيّة غير تلك السيرة والأخبار التي أوردها في كتابه، ما يمكن أن يشفي فضولي،عما قلب حياة ابن مقلة بهذا الشكل، وليس بأي شكل آخر، ماذا لو أنه، لم يتقلد الوزارة، وعاش حياة عادية، زوجة بروعة الدينارية ووفائها، وأولادا بررة لا يحسنون غير الخط والعمل في الدوواين. هل كان سيحقق شيئا خارقا أكثر مما حقق، كتابة المصحف مرتين، والخروج بالخط العربي من دائرة قلم الطومار وصلابة الخط الكوفي إلى مرونة الخطوط التي ابتكرها، وصاغ قواعدها انطلاقا من شكل الدائرة، متخذا من حرف الألف قطرا لها، بحيث تكون الألف جوهر كل الحروف تدور في فلكها، ولا تعدو أن تكون مجرد تنويعات وحالات عمودية وأفقية ومائلة لها..

ما الذي دفعه إلى اختيار حياة المخاطرة والمغامرة والتخفي والانقلابات بدل حياة الدعة والفنّ والرومانسية؟ كنت دائما مؤمنا بأن الشيطان يسكن التفاصيل الصغيرة، ولذلك فكرت في ما كان يمكن أن يكون عليه مسار التاريخ لو أن مدرسة الفنون الجميلة بفيينا قبلت بدخول أدولف هتلر إليها، ولم ترفض قبوله لا لعدم امتلاك الموهبة بل بحجة عدم جديته، حين تقدم إليها عام 1908 قبل انخراطه في السلك العسكري، وفتحت له أبوابها؟ الم يكن العالم سيربح فنانا ويخسر طاغية، كاد أن يحرق العالم..

أصر هلال ناجي على أن يقودني إلى جامع «الحيدر خانة» بقببه وزليجه الأزرق المزين بأشرطة من خط الثلث للخطاط هاشم

البغدادي، هذا الخطاط الذي يمثل مفخرة للعراق، لأنه من سلالة الخطاطين الكبار من أمثال ابن مقلة وابن البواب، فحين توفي عام 1973 قال الخطاط التركي الكبير حامد الآمدي، الذي منحه الإجازة مرتين «بأن الخطّ قد ولد ومات في بغداد».

كنت ذاهلا عن حديثه وهو يسرد عليّ أسفاره إلى دار الكتب الوطنية في تونس، ودار الكتب المصرية والخزانة التيمورية بحثا عن مخطوط كتاب ابن مقلة «رسالة في الخط» في نسخه المختلفة. مؤكدا نسبتها إليه لا لأخيه، مثلما يذهب إليه البعض، كل ما في الأمر أنه كان أملاها عليه. وفيها أبواب عن الخط والكتابة وأقلام الخط وكيفية بريها، وطرق تحضير الورق والمداد، وأشكال الحروف ونسبها...

التقيت أيضا قبل سفري مصوّرا عراقيا شابّا يملك مؤسسة صغيرة لتأجير العتاد السّمعي البصري، بدا لي متحمسا للأمر، اتّفقت معه على موعد بدء التّصوير بعد ثلاثة أشهر..

***

في المفكرة البنيّة نفسها تصفّح علي الجنوي ما كتبه عابد الجيلالي من مسوّدات مشروع فيلمه عن الوزيرا لخطّاط ابن مقلة، وضعها تحت عنوان كبير «سينوبسيس». وبعض المشاهد الإستعادية على شكل متتالية من الارتدادات «الفلاش باك» يعود فيها إلى زمن ابن مقلة ومسيرته إنسانا وخطاطا ووزيرا، لكن يبدو أنه لم يستقرّ على

صيغتها النهائية، بسبب التشطيب والفقرات الفوضوية المبهمة التي لم يستطع عليّ قراءة كثير منها، لكنها عموما تتناول أهم محطّات حياة الخطاط المغدور، حياة ملؤها الصخب والعنف، والأحداث الجسام. ففي رحلته نحو المجد والسلطة ترك ابن مقلة الكثير من ريشه، بل حُرم يمناه التي كانت سرّ قوّته وإبداعه..

لذلك أرجأ عليّ قراءتها إلى وقت لاحق، واستسلم لغفوة طويلة..

7

كانت السيّارة الرباعية الدّفع تندفع باتجاه الصّحراء منذ ساعات الفجر الأولى، وسط الطريق الذي تغمره الرّمال من الجانبين، حتّى ينحسر إلى أقل من ممرّ ضيّق لا يكاد يسمح بمرور سيّارة واحدة، كلّما توغلت أكثر تزداد كثافة الرّمال المتطايرة، وقوة الزّوابع الرّملية، ومعها تقل سرعة السيّارة. لا يكاد علي الجنوي يفوت لافتة من اللاّفتات المنتصبة على جانبي الطّريق، بعضها يحذّر من خروج الجمال، لكن لا أثر لها حتى الساعة، في الصّحراء المترامية مدّ البصر. الخالية إلا من بعض النباتات الصحراوية، فكّر بينه وبين نفسه لو أنّ السيّارة تتعطل بهم في هذا الخلاء الأجرد فماذا سيكون مصيرهم، هل يمكن أن يتوقّف أحد سائقي العربات الثقيلة لنجدتهم، فهي الوحيدة التي يمكنها أن تقاوم شراسة الصحراء، أما العربات الصغيرة التي تمرّ بين الحين والآخر فهي تحت رحمة الصّحراء وتقلّباتها. وبين الحين والآخر يطالعه هيكل سيّارة قد تكون تعطّلت، فهجرها صاحبها ناجيا بنفسه، أو قد يكون هلك حين اصطدامها بجمل شارد، أو بسبب الزّوابع التي تشتدّ في فصل الربيع، حيث يفضل النّاس السياحة في الصحراء.

ويغامرون منخدعين بصفاء سمائها ووداعة شمسها.

الصحراء توأم البحر، مغرية وخادعة، تفتك بالضّعيف الغرّ، أو بعاشقها الذي يقرأ فيها الأمان ويأنس إليها فتأخذه على حين غرّة. لو يدرك المفتونون بالصحراء من السّياح حقيقتها ما افتتنوا بها ولا قطعوا إليها المسافات من أجل التمتع بسحرها وأسرارها لأيّام، ثم يقفلون راجعين محمّلين بالصور وبالذكريات الجميلة وبالهدايا، من حليّ فضيّة ومشغولات يدويّة، لو أنهم جرّبوا بؤسها وحياتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وما أطاقوا يومياتها..

ولد علي الجنوي في واحة صحراوية، كانت قبلة للسّياح، ومنذ وعى كان يلاحظ شغف الأجانب بالصّحراء وضوئها ومناخها الجاف، وكان يستغرب أخيلتهم وأساطيرهم عنها. في ما بعد عرف أن ذلك يعود إلى الصّورة التي رسمها الإستشراق عن الصحراء الجزائرية، والبطاقات البريدية الجميلة التي غذّت رغبتهم في زيارتها، خاصّة الفنان إتيان دينيه الذي حوّل الجنوب الجزائري إلى جنّة..

في قرارة نفسه تمنّى لو أنه ولد في قصبة الجزائر، أو قرب البحر، لأنه مدرك أنه لولا البترول الّذي في جوف الصّحراء ما التفت إليها مسئول أو زارها وزير، فمعظم سكانها فقراء يعيشون بؤسهم على أرض غنيّة. يكاد يكون ممنوعا عليهم الدّخول إلى بعض المناطق فيها، لأنّها أصبحت قواعد للشركات البترولية الأجنبية، الأمريكية والألمانية والصّينية، ويحتاج الدخول إليها إلى إجراءات أمنية مشدّدة.

بينما تحوّلت مناطق أخرى من الصحراء إلى محميات يقصدها أمراء الخليج لصيد الغزال والحبّار، وصارت محظورة على أهالي الصحراء. لا يستطيعون الاقتراب منها. صارت لديه حساسيّة ممن يتكلّمون عن الصّحراء وجمالها وفتنتها، كلام من لم يدرك حقيقتها أو يعش بها، ومن يتخيّلها سهرة في الخلاء تحت ضوء القمر، حول نار مشتعلة وشاي وشواء أو خيمة شعر مليئة بالنّساء الجميلات ذوات العيون الواسعة.

الغريب أن الصحراوي مغتبط بحياته تلك رغم الحرارة التي لا تطاق صيفا، ورغم الأفاعي السّامة، لكنّه لن يرضى بغير الحياة في قصره أو واحته وسط حوشه الطينيّ المتواضع، بل أنه ليرقّ لحال سكان المدن الكبرى المكدّسين في عمارات ضيّقة. أشبه بعلب السّردين، يعيشون وسط الضّجيج والفوضى والتلوث، يلهثون من الصباح إلى المساء من أجل لاشيء، بينما يملك هو كل العمر من أجل التفرغ للظلّ والشّاي..

عندما أخبره برغبته في أن يرافقه إلى الصّحراء، حيث تسكن عائلة عابد الجيلالي، تردّد عليّ في الموافقة لكنّ السيد نافري ترجّاه وألحّ عليه. ولم يترك له فرصة للرفض رغم تحجّجه بالتزاماته الكثيرة، وأعذاره المختلفة..

اتصل بالضّابط محمود ليخبره بالأمر، التقيا في المساء في مقهى قديم، قال له بأنّه على علم بكل شيء، وبأن ترتيبات الرّحلة قد تمّت بالفعل، بقي فقط موعد الانطلاق الذي لم يتحدّد بعد. وعليه أن

يكون مستعدّا في أي لحظة، لكنّه أوحى له بأن هناك مسارا محدّدا يجب أن يتبعه، وعليه أن يكون متعاونا، لأن الأمر يجب أن يبدو على انه مجرّد رحلة سياحية، لسائح أجنبي يفترض أن يكون صديقا لعليّ. ومن اجل أن لا يثيروا الانتباه لدى الفضوليين وضعوا تحت تصرّف السيد نافري سيّارة ومرافقا مؤهلا سيكون السائق في نفس الوقت. وهو الذي سيتولىّ تأمين الرّحلة من جميع النواحي.

منذ بداية الرّحلة استسلم عليّ لغفوة عميقة، بسبب أرقه الذي يصيبه في كلّ مرّة يكون فيها مقبلا على سفر، كان قد سوّى مقعد السيارة بشكل مائل ومريح للنوم، ولم يستفق إلاّ حين توقفت السيّارة ونزل السائق ليدخّن سيجارة غير بعيد عن حاشية الطريق، فيما وجدها فرصة لكي ينزل هو بدوره، كي يفرغ مثانته، إذ جثا على ركبتيه متحاشيا أن يستقبل الشّمس التي كانت تلوّن الأفق بلونها الحنّائي، في محاولة منه لأن لا يكون في وضعية مواجهة للقبلة التي علّمته تقاليده أن يدير لها ظهره أثناء التبوّل أو التبرّز، حتى البنّاءون كانوا يحرصون على أن لا تكون بيوت الخلاء متجهة للقبلة. نزل السيد نافري الذي كان يحتلّ المقعد الخلفي للسيّارة، وراح يقوم بحركات رياضيّة لتمديد عضلات جسمه، ابتعد قليلا وراح يبول واقفا بدون أي شعور بالتحرّج، حين رآه كذلك أجهد فكره في أن يتذكّر بالضبط آخر مرّة تبوّل فيها واقفا في الخلاء بهذا الشكل، كان منظر من يقومون بالتبوّل على الجدران في المدن والشّوارع يثير تقززه. عاد إلى السيارّة وأحضر آلة التصوير ثمّ راح يلتقط صورا لمنظر الشّروق البديع في الأفق الصحراوي.

8

كانت مدينة الأغواط هي المحطّة الأولى التي أصرّ السيد نافري على زيارتها لحاجة في نفسه، لم تتّضح إلا فيما بعد، وقد كان بالإمكان أخذ طريق آخر، يلبّي رغبته في المرور بزاوية عين ماضي والعروج على غرداية، المدينة التي يقول بأنه حلم بزيارتها، من فرط ما سمع وقرأ عنها في الإنترنت.

كان عليهم أن يصلوها قبل الظهر، لذلك فقد كان السيد نافري يسأل في كل مرّة عن المسافة المتبقيّة للوصول إليها، بلهفة ملفتة، جعلت عليّ يتساءل عن السرّ الكامن وراءها. طوال الرّحلة كان مشغولا بتأمل المناظر بشغف ودهشة، والتقاط الصّور أو العمل على حاسوبه المحمول. متأفّفا في كلّ مرّة من انقطاع الإرسال، ويبدو أنه كان يتّصل بالانترنت، أو يتواصل مع أشخاص آخرين.

أما السائق عثمان الذي كان يرتدي سترة جلدية، ويضع على عينيه نظّارة سوداء، فقد التزم الصّمت طوال الرحلة، مكتفيا بالتّماهي مع «علّة البشاري» أو «علّة الفوندو» عازف العود الأسطوري، الذي

لا تخلو منه مجالس عشّاق الخلوات الصحراوية. كان عوده ينشج وينبعث من قارئ الأقراص، بشكل خفيض وكأنه يصدر من بئر عميقة، أو يأتي من مكان سحيق في نهايات الأفق، كي تطوّح بك في أقاصي الصحراء.

في كل مرّة كان عثمان يعتذر للنّزول لأخذ سيجارة بعد أن يتفحّص المكان بنظرة محترسة. يبدو أنه كان يرغب في كل مرّة في قهوة ثقيلة، لذلك فقد كان منزعجا من ندرة المقاهي في مقابل وجود باعة الشّاي من الأطفال والكهول الذين يعرضون أباريقهم النّحاسية الصفراء، على قارعة الطريق. لمرّتين احضر لهما كأسي شاي بلاستيكيين، أما هو فكان يكتفي برشفات قليلة من كأسه، ثم يرميه من نافذة السيّارة. مما حدا بالسيد نافري إلى التعليق:

- يبدو أن الصّحراء هي بلد الشاي.. يا صديقي. وسنعاني كثيرا هذه الأيّام نحن عشّاق أرابيكا وروبيستا.. مكاننا الطبيعي هو البرازيل. الشّاي الصّيني يقطع كل هذه المسافات الطويلة ليستقرّ في أباريق الشّاي الصحراوية..

طوى السيد نافري حاسوبه متأسفا على قرب انتهاء شحن البطّارية، وسأل عن المسافة المتبقيّة أمامهم:

- حوالي الساعة.. قال السّائق.

أخرج هاتفة المحمول شكّل رقما، وبعد هنيهة قال:

- مرحبا زينب. بعد حوالي ساعة سأكون في الأغواط، سأرتاح

قليلا، ونلتقي في حدود الرّابعة. أوكي.. سلام .

ما إن وصلوا إلى فندق «الهلاليين» حتّى آوى عليّ إلى غرفته، استلقى على السّرير، بعد أن نزع حذاءه ومعطفه، كان في نيّته أن يغفو قليلا، ثم يستحمّ ويحضّر نفسه لمرافقة نافري، غير أنّ سنة النّوم التي أخذته كانت أشبه بالغيبوبة، استغرقت ساعات طوال، بفعل الإرهاق الذي ناله في الفترة الأخيرة. ومنعه حتّى من سماع رنين الهاتف.

حين كان بين الغفوة واليقظة، يحدّث نفسه بالنّهوض، ويغالب نفسه التي تحدّثه بالاستسلام لمزيد من النّوم، رنّ هاتف الغرفة فأحسّه بعيدا، رغم أنه كان على الطاولة الليليّة بمحاذاته، مدّ يده بعد لأي ليمسك السمّاعة، وليردّ على المتّصل، فجاءه صوت أنثوي ناعم على الطّرف الآخر، حمله على الانتباه أكثر:

- معذرة سيّد عليّ، أصدقاؤك ينتظرونك ويستعجلونك للنزول للعشاء في مطعم الفندق..

- كم الساعة من فضلك؟

- التّاسعة وعشرون دقيقة..

- شكرا.. سأنزل حالا..

حين نزل إلى المطعم، وجدهم قد احتلّوا طاولة قصيّة، تطلّ على حديقة صحراوية، كأن النّادل قصد ذلك احتراما لهم من أجل أن يكونوا

بمنأى عن لغط بقية زبائن المطعم من كبار المقاولين والمسئولين المصحوبين بنساء شقراوات بالغن في وضع المساحيق والزينة، وكنّ يدخنّ ويطلقن ضحكات عالية..

ما أن جلس حتى بادره السيّد نافري بالعتاب على التأخر عن الجولة المسائية التي قادته إلى المدينة القديمة بالأغواط برفقة زينب، فقاطعه معتذرا ومحتجّا بالتعب والنوم الذي غلبه، ثم قدم له صديقته:

- هذه زينب، أستاذة جامعية، وهذا صديقي الفنان عليّ.

أحسّت بحرجه وتردّده في مصافحتها، لأنها كانت محجّبة، وقد وقعت له مواقف محرجة مع مثيلاتها، ممّن اعتذرن له عن المصافحة ما سبّب له حرجا بالغا، لذلك، فقد قامت هي وصافحته بلباقة مبالغ فيها:

- تشرفت بك سيد عليّ..

ثم أفاضت في سرد عن تاريخ الأغواط، وهي جمع غوطة، مثلها مثل غوطة دمشق، أما ترجمتها إلى الإسبانية فهي «لاس فيقاس». تحدثت عن سير شعرائها ومتصوّفيها، وعن لوحة إتيان دينيه «سطوح الأغواط»، وعن هجرات الهلاليين الذين عمّروا هذه الديار بلغة فرنسية رفيعة، كانت تتوجّه بها خاصة للسيّد نافري.

بدت له زينب أربعينية رائعة الجمال، خمريّة الوجه، بعينين

واسعتين سوداوين، تنفلت بين الحين والآخر خصلات من شعرها الأسود على جبينها، فتعيدها بأصابعها بحركة تعوّدت عليها..

أحسّ عليّ بتضايق السائق عثمان من حديث زينب وانفتاحها الذي عقّده، وسبّب له إحساسا بالكرامة المجروحة، من خلال صمته الذي فضح انزعاجه المكابر والعنيد على عادة كل الجزائريين، والأكيد أنه رأى نفسه مجرّد قوّاد أمام هذه السّاقطة التي تمنح نفسها لهذا الأجنبي، من أوّل ليلة، ولو أنّها كانت تمتّ له بصلة قربى ما تورّع عن ذبحها من القفا غسلا للشرف المهدور بالدم .

ما أدى به إلى إنهاء عشائه بسرعة، واستأذن في الانصراف إلى غرفته متحجّجا بالتّعب الذي ناله بسبب السياقة المتواصلة. وقبل أن ينصرف سأل السيد نافري عن موعد الانطلاق إلى عين ماضي في الغد..

- التاسعة ..ممكن؟

أجاب، وهو ينتظر تأكيد زينب التي، أومأت بالموافقة، وهي منشغلة بالأكل.

تواصلت السهرة إلى وقت متأخر داخل الخيمة المنصوبة في باحة الفندق، حول صينية الشّاي والمكسّرات التي أحضرها لهم نادل بزيّه التقليدي، كان يعدّه على الجمر.

حدثتهما زينب عن الخيمة النائلية أو «البيت الحمراء» ذات

الخطوط الحمراء، وعن زربية «جبل عمور» المشهورة بزخارفها وبألوانها التي تؤثث هذه الخيمة، كانت أحيانا تنسى نفسها وتتمايل مع الأغاني النائلية التي تنبعث من مكبر معلّق في أحد أعمدة الخيمة..

في لحظة من اللحظات بلغ هوسها أوجه، ولم تستطع مقاومة رغبتها في الرّقص، نزعت صندلها ذي الكعب العالي، أزاحت خمارها، وحرّرت شعرها الفاحم بحركة سريعة من عنقها المرن، ذي الصفاء الآسر، ثم انخرطت في رقص روحاني على إيقاع أغنية نائلية للشاب «ديديا» تتغني بالزّين العربي. ثم ما لبثت أن دعت السيد نافري بحركة من يديها لمشاركتها رقصتها، فراح يهتزّ يمينا وشمالا كالأبله يصفّق ويضحك مأخوذا ومنبهرا بتلك الرّقصة البديعة.

هدأت زينب، وعادت إلى جلستها، حين تحوّل الغناء إلى موّال صحراوي للمطرب خليفي أحمد يتغنى فيه بقمر الليل وعذابات العشّاق، فراحت تترجم له معاني تلك القصيدة للشاعر العاشق عبدالله بن كريو ..

غمرتها فجأة سحابة من الكآبة، تردّدت قليلا ثم طلبت من عليّ سيجارة، فمدّ لها علبته، سحبت منها واحدة، قرّبتها من أنفها وشمّتها بعمق، ثم وضعتها بين شفتيها وأشعلتها من قدّاحة عليّ التي مدّها لها، شكرت له ذلك. ثم أردفت:

- أعتذر لك سيّد عليّ ربما أكون قد صدمتك بهذا السلوك. ولكن ما شجّعني هو أنّني لاحظت أنك تدخن بشراهة كبيرة..

- لا مطلقا ..

ردّ عليّ بما يشبه الهمهمة، ولم يستطع أن يخبرها بأن منظر المرأة، وهي تدخن، يغريه كثيرا ويثير في نفسه رغبة لا تقاوم، ربما لأن هذا السلوك ارتبط في مخيّلته بمنظر العاهرات، وهن يدخنّ في انتظار الزبائن، وهن يكشفن عن أجمل ما في أجسادهن. أما إذا كانت هذه المرأة تدخّن وتضع نظارات طبيّة تشي بأنها مثقفة، فتلك قمّة الإثارة ومصدر الإستيهامات والفنتازمات التي كانت تدفع عليّ قبل زواجه إلى اقتراف العادة السريّة.

مجتمعات المدن المحافظة لا يمكن أن تتسامح مع الفتاة المدخنة. وهو ما أكدته زينب، فهي لا تجد فرصة لذلك إلا خلال أسفارها حين تكون بعيدة عن مدينتها الأغواط.

كانت أول سيجارة دخنتها زينب بغرفتها بالإقامة الجامعية بالجزائر العاصمة حين كانت تدرس هناك، وقد لاحظت أن بعض المقيمات القادمات من المدن الداخلية، خاصة ممن كن يدرسن اللغات الأجنبية كن يدخن أمامها دون حرج، ما دفعها إلى مجاراتهن، معتقدة أن ذلك كفيل بأن يغير من نظرة الأخريات إليها، لا كفتاة صحراوية بدوية بل كفتاة متحضرة، تدرس الفرنسية وتحاول أن تتكلم بها، وهكذا تمكنت منها عادة التدخين، ولم تستطع التخلص منها، لكنها ظلت تمارسها في سرية تامة، بعيدا عن الأنظار.

في سنوات الجامعة صار لها حياة أخرى، ترتدي الجينز والتيشرت والنظارات، وتضع المساحيق والعطور التي كانت تأتيها في شكل هدايا من أحد أبناء الأثرياء، أوقعها في مصيدته ذات مساء، بسيارته الفارهة المغرية. صارت تتسلل من الإقامة الجامعية كل نهاية أسبوع لتلتحق به، ويخرجان معا لقضاء ليلتهما في شقته.

كانت ترفض فكرة مضاجعته أو أن تسلم له نفسها، مكتفيين بعلاقات جنسية سطحية لا تتعدى القبل والمداعبات، إلى أن جاءت تلك الليلة التي استسلمت له فيها ومنحته نفسها بعدما شربت جرعة زائدة من الويسكي، لتجد نفسها في الصباح تنزف دما، وقد فقدت عذريتها التي كانت والدتها توصيها بها فهي تمثل شرفها، وكنزها الذي تدّخره لمن سيتزوجها. فيما كانت زميلاتها يرددن دوما بتبجح ومباهاة بعلاقاتهن أن الفتاة المتمسكة بعذريتها معقدة، وتحتاج إلى استشارة طبيب نفساني..

من يوم أوصلها حميد إلى الإقامة الجامعية، بعدما وعدها كذبا بالزواج، وترك لها مبلغا من المال، لم تر له أثرا ولم يعد إلى لقائها مرّة أخرى.

كان عليّ يتأمل زينب، وهي تدخن بشغف كبير، وتفضي بعذاباتها ومعاناتها اليوميّة مع مجتمع لم يرحم أنوثتها، ولم يتقبّل وضعها كأستاذة جامعية، تحاضر وتسافر وتتكلم الفرنسية، اللغة التي أحبتها منذ نعومة أظافرها، وتعلمت أولى أبجدياتها على يد والدتها التي

كانت تحسنها بعض الشيء، بحكم خدمتها في بيت فرنسي قبل الاستقلال، وحين شبت ابنتها زينب شجعتها على قراءة الكتب التي كان نافري الجدّ قد تركها في مكتبة المنزل الذي غادره. ربما لأنها كانت تحلم بأن تراها شخصية مرموقة في المجتمع، أو ربما لأنها هي نفسها لم تتخل عن حلم الالتحاق بفرنسا ليلتئم شملها بحبيبها وابن سيّدها الفرنسي الذي أحبّته، وفي خلوة حميمية زرع في أحشائها نطفة زينب التي ألحقتها باسم قريبها إبراهيم الذي تزوجته بعدها ثم طلّقها لأنه لم يجدها عذراء. وبسبب القرابة التي تجمعهما افتعل إبراهيم أسبابا أخرى لتطليقها، غير أن ذلك لم يقطع ألسنة المتقولين بالهمز واللمز، حتى أن بعضهم كان يسمي زينب «بنت الرومي».

عاشت العارم على أمل تلك المحبّة وأحلامها إلى أن دخلت عليها ابنتها زينب ذلك المساء برفقة نافري الابن كي تضع حدا لأحلامها التي تراودها وهي تتمسك بها بسذاجة بدوية ..

طاف أرجاء البيت العائلي القديم، راح يتلمّس قطع الأثاث، ويشتمّ رائحة الأشياء القديمة، كأنما يستحضر أرواح جده وجدته ووالده فربما تكون قد حنّت وعادت إلى المكان بعدما غادرت الحياة الدنيا ..

حول صينية الشاي، حدّثها عن حنين والده الجارف ورغبته في زيارتها قبل وفاته، سلّمها رسالته التي يعتذر فيها عن كل ما سبب لها من ألم، ومشاكل مع عائلتها ومحيطها. ثم تأملا سويا صورته الأخيرة مع زوجته الفرنسية التي تزوّجها بعد مغادرته فجر الإستقلال مباشرة،

ولم تنجب له غير نافري ..

لقد شارفت زينب على الخمسين، وصار لها مسكن خاص وسيّارة، دون أن يتجرأ احد أولئك الشباب العاطلين الذين يعاكسونها في كل حين على أن يطلب يدها أو يشاركها وحدتها..

أراد السيد نافري أن يغيّر مجرى الحديث ويخرجها من كآبتها، فقال لها في حركة مسرحية، جعلت أساريرها تنبسط ..وتبتسم:

- أنا لك أيتها الأميرة الهلالية ..

ثم سحب يدها إلى شفتيه وقبّل ظهرها كما يفعل ممثلو الأفلام الكلاسيكية الغربية.

حين رأى أن الوضع يكاد يصبح غزلا متبادلا، وإفضاءً حميما، افتعل عليّ التثاؤب واستأذنهما في الانصراف ليتركهما لمساررتهما، لكي لا يكون شاهدا على ما هو أحرّ من مشاهد الغزل ...

عدّل الماء على درجة دافئة، ثم انزلق تحت شلاّل الماء السّاخن وهو يدندن أغنية «قمر اللّيل خواطري تتونّس بيه، فيه أوصاف يرضاهم بالي»...

وهو مستلق على سريره، سمع وقع خطاهما المكتوم، وهما يدلفان إلى غرفة، السيّد نافري ويغلقان الباب عليهما.

9

بعد مسيرة ساعة من الزمن توقفت بهم السيّارة أمام بوّابة زاوية «عين ماضي»، حيث مقرّ الخلافة العامة للطّريقة التيجانية التي تشرف على الجزائر وعموم إفريقيا، وتعدّ أكبر الطّرق من حيث عدد المريدين والأتباع، استقبلهم مقاديمها وطافوا بهم في كل إرجائها من تكايا وأضرحة لشيوخ الزّاوية بدء بمؤسسها الأول. وقفوا على ضريح أوريلي بيكار الفرنسية التي تعلّق بها قلب الشيخ سيّدي احمد التيجاني عندما كان منفيا في فرنسا، وسرعان ما تزوّجها رغم معارضة السّلطات الفرنسية، ومن أجلها طلّق نساءه وعاد بها إلى الجزائر، حيث عقد زواجهما الأسقف لا فيجري، ومنها انتقلت للإقامة بعين ماضي حيث صارت سيّدة التيجانية الأولى. تقلّدت اسم «لالة يمينة». أدارت شؤون الزاوية باقتدار وساهمت في عودة الرّوح إليها بعد الصّعوبات العسيرة التي مرّت بها بسبب الصّراعات التي كان يعرفها محيط الزاوية، وكانت الزاوية التيجانية قد تعرّضت لحصار طويل من طرف الأمير عبدالقادر، بسبب عدم دعمها له ومساندتها لثورته.

غير بعيد عن عين ماضي بني سيّدي أحمد التيجاني لمحبوبته «قصر كوردان». إذ يعدّ تحفة معمارية رائعة، عربية الطراز، عربون محبّتة لها، وقد بقي شاهدا على قصّة الحبّ التي جمعت بين الصّوفي، وبين السيّدة الفرنسية التي تخلّت عن وطنها وعائلتها من أجله، وأصبح القصر مزارا لكثير من النّاس يقصدونه من كل البلاد..

بعد وفاته تزوّجت لالة يمينة أخاه سيّدي البشير التيجاني، لكنّها كانت قد فقدت تلك المكانة التي كانت تحظى بها في أوّل عهدها.

استقبلهم الخليفة العام للتيجانية ضمن عدد من الزوّار في قاعة استقبال فسيحة، مزيّنة بقطع أثاث قديمة وزرابي تقليدية وصور بالأبيض والأسود لمشايخ الطريقة. دعاهم للبقاء للغداء لكنّهم اعتذروا منه وغادروا عائدين إلى الأغواط. التي وصلوها زوالا، فقد دعتهم زينب على طبق شخشوخة في أحد المطاعم التقليدية بوسط المدينة، وفيما كان السيّد نافري يتأفف من المذاق الحار للطبق المتبّل الذي لسع لسانه، ويصغي إليها بانتباه. راحت تواصل حديثها عن أوريلي بيكار، أميرة الصحراء كما سمّاها أحد الصحفيين الفرنسيين، وحكاية حبّها التي صارت متداولة على ألسنة النّاس وعلى صفحات الكتب، حتّى إن البعض ذهبوا إلى القول أنها كانت جاسوسة تعمل لحساب السلطات الفرنسية، وهي نفس الشائعات التي كانت تدور حول الكاتبة الرحّالة إيزابيل ابرهاردت، التي قضت شطرا من حياتها في الصحراء الجزائرية متنكرة في زيّ رجل صحراوي،

إلى أن قضت نحبها، حينما جرفتها مياه وادي عين الصفراء .

- هناك رواية جميلة كتبها روجي فريسون روش تتناول سيرة هذا الحبّ. أحبّك أن تقرأها ..قالت زينب.

ثم أخرجت من حقيبتها كتابا كتبت إهداء خاصا على صفحته الأولى، ثم سلّمته للسيد نافري. قرأ العنوان بصوت عال:

- Djebel Amour.. ça l'air très jolie. .merci infiniment Zineb pour tous ces moments très agréables..

ثم طبع قبلتين على خدّيها بمودّة كبيرة.

انسحب علي والسائق عثمان إلى السيّارة. في المرآة العاكسة رآهما يتعانقان، وهما يتبادلان عبارات الوداع، وتأوهات الحسرة اللاّذعة، على أمل أن يراها قبل مغادرته..

بدا السيد نافري منقبضا، استلقى في المقعد الخلفي يتأمل الصحراء، وهي تطوى أمام ناظريه، كل ما طلبه من السائق هو أن يرفع صوت الموسيقى قليلا، كي يتمكن من الاستمتاع بعزف «علّة الفوندو»، الذي كان يزيد من الشّجن الصحراوي الذي تلبسه، ثم انخرط في قراءة رواية «جبل عمور»، ولم يرفع عينيه عنها إلا بعد أن أتى على كل صفحاتها، وهم يشرفون على مرتفعات غرداية، ويطلّون

على مناراتها وقصورها العتيقة. تلفها خلفية بنفسجية، وهي تلتحف ليلا مرصّعا بالأضواء، أعاد قراءة الإهداء مرّة أخرى، ثم تنهّد وطوى الكتاب.

عندما وصلوا إلى فندق الجنوب، آوى إلى غرفته، واعتذر عن مقاسمتهم العشاء من ألم في معدته، بسبب مذاق «الشخشوخة» اللاذع الذي لم يتعوّد عليه.

وجد علي الجنوي الفرصة لكي يتّصل بزوجته التي انشغل عنها منذ بداية الرّحلة، اطمأن عليها وطمأنها على نفسه، تفاجأت حين أخبرها بوجوده في غرداية في مهمّة طارئة، استغربت ذلك، فهي تعرف عزوفه عن السفر منذ مدّة. وعدها بأنّه سيروي لها كل شيء حالما يلقاها، ثم اتّصل بصديقه محمد سعيد يخبره بأنه موجود في غرداية، ويرغب في اللقاء به، اتفقا على أن يزوره غدا في مدينة القرارة.

وإذ هو كذلك جالس في أريكة ببهو الفندق، منشغل بهاتفه، في انتظار أن يلتحق به السائق عثمان حتى يتعشيّا سويا. اقتربت منه عاهرة كانت ترتدي لباسا حاسرا يشف عن مفاتنها، وطلبت منه كبريتا لتشعل سيجارة كانت تمسكها بين بشفتيها المصبوغتين بأحمر شفاه ساطع، حين أعادت له الولاعة طلب منها أن تحتفظ بها، فشجعها ذلك على سؤاله:

- هل يمكن أن أعرف ماذا تعمل؟

- «فنيان». قال، ثم ابتسم لها.. أقصد فنّان .
- هل يمكن أن نتعشى معا؟
- آسف لا أستطيع.. لست وحدي ..

عندها انسحبت بأسى، وجلست في أريكة أخرى، وهي تدخّن سيجارتها، وتضع ساقا فوق ساق. حين هم بمهاتفة السائق عثمان يستعجله الالتحاق به. رآه يخرج من حانة الفندق.

على طاولة العشاء سأله عثمان إن كان يستطيع أن يطلب زجاجة نبيذ، فقال له بأنّه حرّ وهذا شأنه، لكنّه بالمقابل سأله إن كان يستطيع دعوة عاهرة جائعة على العشاء معهما، وهكذا يجتمع الخمر والنساء، فابتسم عثمان واعتقد أن الأمر مجرّد مزحة.

لكن عليّ غاب برهة، وعاد برفقة العاهرة التي تعشت معهما، فلم يجد عثمان بدّا من التعليق ..

- خير من أن تذهب وجبة السيّد نافري سدى ..

أراد عليّ أن يتمشّى قليلا في شوارع المدينة، لكي يتمكن من تعبئة رصيد هاتفه لكن عثمان اقترح عليه مرافقته في السيّارة خوفا من مخاطر الليل. جابا شوراع كثيرة، كانت كل المحلاّت مغلقة وحركة المارّة نادرة جدّا. بعد يأس عثرا على محلّ مفتوح، عبّأ عليّ رصيده، واشترى علبتي سجائر، ثم تذكّر فاشترى ولاّعة جديدة. لأنّه خاف أن يستعيد ولاعته بعد أن لمستها تلك العاهرة، عندما أحصى نقوده

لاحظ أن السعر كان مبالغا فيه، تردّد في مراجعة صاحب المحل الذي أحس باستغرابه، فأخبره بأنه الأسعار المطبّقة خاصة بالليل، لأنّه يخاطر بفتح محلّه في وقت كهذا. فلم يحر جوابا.

عندما رأي إبريق شاي أصفر طلب منه كأسا، لكن البائع رفض مقابله، قائلا:

- الشاي لا .. من عندي، يمكن أن تأخذ كأسا لصاحبك ..
- لا شكرا صاحبي يخاف من الشّاي ..

10

لم يكن من الممكن زيارة قرى ميزاب الخمسة، لذلك اقترح عليّ على السيد نافري زيارة «بني يزقن» أهمّ هذه القرى. في مدخلها، تولّى دليل سيّاحي من الميزابيين، يلبس لباسا تقليديا ويضع على رأسه طربوشا أبيض مرافقة المجموعة. طاف بهم في الممرّات الضيّقة الملتوية التي تشبه أزقّة القصبة في تعرّجاتها. شرح الدليل أن المدينة بنيت بهذه الطريقة كي تبقى مظلّلة طوال ساعات النهار، ولا يكون السائر فيها معرضا لأشعّة الشمس بسبب حرارة المنطقة الشديدة صيفا، شرح لهم نمط المعمار والخامات المستعملة في البناء وصغر النوافذ التي تستعمل للتهوية وللمحافظة على برودة البيوت من الداخل، وكيف أن المهندس المعماري «لوكوربوزييه» كان مفتونا بهذا المعمار واستلهم منه الكثير في مشاريعه الهندسية، مثله مثل المهندس المعماري المصري حسن فتحي، صاحب كتاب «البناء مع الشعب» الذي كان يقول بضرورة العودة إلى البناء بالمواد التقليدية كاللبن المصنوع من الطين، خاصة في المناطق الصّحراوية التي لا

يناسبها البناء بالإسمنت، لأن مناخ المنطقة شديد الحرارة صيفا وشديد البرودة شتاء.

عندما دخلوا أحد بيوت بني يزقن شرح الدليل سبب وجود بيت الضيافة في ركن منزو، وكيف أن المرأة وهي في مطبخها تستطيع رؤية الباب الخارجيّ، ولا يستطيع الداخل رؤيتها، ثم إن وجود ثقوب في أعلى سطح البيت تدخل الهواء البارد وتخرج الساخن. كان ثمّة أكاليل معلقة من القرنفل المرشوش بالماء تعطي رائحة زكيّة للبهو..

خرجوا إلى السوق كان مليئا بكل شيء، من التوابل والخضر والبقول الجافة، إلى الأعشاب الطبية وغيرها، وكان الباعة يعرضون بضاعتهم حيثما اتّفق على دكك واطئة أو على الأرض..

أسكت باعة العقاقير والمبيدات والأدوية الخاصة بالعقم والبرود الجنسيّ مكبّراتهم فجأة، حين توجّسوا خيفة من أفراد الأمن الذين كانوا يرافقون السيّد نافري في لباس مدنيّ، وهم يحملون أجهزة التالكي والكي، فلم يكن من الممكن خروجه دون حراسة، تجنّبا لكل طارئ. خاصة مع موجة خطف الأجانب من طرف الجماعات المتطرّفة للفت أنظار القنوات العالمية إلي نشاطها، أو لطلب أموال طائلة كفدية للمخطوفين.

كان السيد نافري في كل مرّة ينتهز فرصة لالتقاط صور للبيوت والأزقة الطينية أو للباعة والعابرين بسحناتهم السّمراء، وألبستهم

البسيطة، أو للأشياء التي تشدّ انتباهه.. وكأنه يريد أن يخلّد كل لحظة بعدسته..

***

استقبلهم محمد سعيد في ضيعته الواقعة في ضواحي المدينة، وهو يرتدي لباس أهل المنطقة، عرف عليّ السيد نافري على صديقه القديم، وراح يثني على مكانته كواحد من أمهر الخطّاطين والباحثين في الخطّ العربي، ويفتخر بكونه كان أستاذا له حينما كان طالبا بمدرسة الفنون الجميلة، ثم صار زميلا له بنفس المدرسة لسنوات قبل أن ينتقل إلى سطيف، تجوّل بهم بين أشجار النخيل والفاكهة، وعرّج بهم على إسطبل توجد به فرس دهماء..

استأذنه السيد نافري في أن يلتقط صورة لها، فأذن له. أراد علي أن يعيده إلى ذكرياتهما:

- كنت أظنّك تفضل البرذون، فإذا بك تملك فرسا عربية أصيلة..

ابتسم محمد سعيد، ثم قال:

- هل تعلم يا عليّ منذ صغري لا أستطيع أن أفصل بين ولعي بالخيول وبالحروف، كل حركة من حركات الفرس تحيلني

على حرف من حروف الخط العربي. اقتنيت خيولا كثيرة، ولكن أجملها عندي تلك التي تكون دهماء بلون الصّمغ العربي.. لذلك لم أفكر يوما في شراء جواد بلون أبيض.. لا تستطيع أن تتخيل صدمتي منذ سنوات حين وجدت مهرة لي ميّتة بسبب لدغة أفعى سامة..

أنا أختلف عنك، لأنني مازلت وفيّا للخط العربي، أما أنت فقد نحوت منحى آخر في أسلوبك الفني، ولكنك بالتأكيد تدرك ما أريد أن أقول، وربما هذا هو ما فكرت فيه في معرضك «تأبينية ابن مقلة»..

أنا متأكد أن حركات الخيول هي الحروف عينها، جمالا ورشاقة ومرونة، ولا أعتقد أن هذا غاب عن ذهن ابن مقلة وهو يهندس الحروف، ويضع مقاييسها وميزانها ومدّاتها..

أشار محمد سعيد إلى قصب البامبو في زاوية من ضيعته، وراح يشرح كيف أنه تجشم العناء الكبير في جلب شتلاته من شرق آسيا في إحدى رحلاته من أجل غرسها في هذه المنطقة الصحراوية، غير أنها تحتاج إلى الكثير من الماء، ولذلك فقد خصص لها مساحة تكاد تتحول إلى بركة من الماء بسبب تدفق الماء فيها طوال السنة من بئر الضيعة، وهو ينتظر استواء قصبها ليصنع منه أقلام الخط العربي بعد تجفيفها في مكان ظليل.

تذكر علي الجنوي أيام كانوا يدرسون بمدرسة الفنون الجميلة بالجزائر. حين طلب منهم أن يحضروا أقلام الخط لجأ عابد الجيلالي إلى سرقة قصب البامبو من حديقة التجارب بالحامة، التي تعود إلى العهد الاستعماري، وهي غنية بكل أنواع النباتات والأشجار التي جلبت من كل أنحاء العالم. كان يجفف سيقان البامبو على سخّان غرفة إقامته، حتى تيبس وتشتدّ صلابتها، ثم يقوم ببريها وقطّها، وبيعها لبقية الطلبة، الخائفين من تقريع أستاذ الخط العربي الذي لم يكن يتسامح مع المقصّرين ..

أقسمَ الله تعالى في إحدى الآيات الكريمة بحرف النون وبالقلم، دلالة على خطر شأن الكتابة وقدسيتها، وعظمة الأسرار الكامنة فيها، وفي لحظة من اللحظات كان القلم والنّاي يصنعان كلاهما من القصب، وإذا كان سرّ لوعة وشجن ناي جلال الدين الرومي هو حنينه إلى القصبة الأمّ التي فارقها، لذلك فهو يتألم ويصدر أنغامه الشجيّة، فإن حنين القلم إلى القصبة الأمّ جعله ينزف حبرا وصمغا عربيا أشبه ما يكون بالدمع ألأسود.

هذا يعني أن القلم والناي شقيقان توأمان، ذلك أن الخطّ موسيقى العين، وأن الموسيقى خط السمع..

لقد تعامل العرب مع الحرف بقدسية كبيرة وصلت حدّ تماهيه مع المقدّس والممارسة الصوفية. ما حدا بالشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي إلى القول «إن الحروف أمّة من الأمم، مخاطبون ومكلّفون، وفيهم

رُسُل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، ولا يعرف هذا إلا أهل الكشف من طريقنا، وعالم الحروف أفصح العالم لساناً وأوضحه بياناً».

كان الفنان الفرنسي المسلم ناصر الدين دينيه أحد المعجبين بالخط العربي. يرى بأن اتجاه حركة الكتابة العربية من اليمين إلى اليسار يدل على رغبة الخطاط في احتواء العالم الخارجي واستدراجه إلى الداخل الموجود في جهة القلب اليسرى. وفي حركة الكتابة العربية مصافحة واحتضان للعالم، وتعبير قويّ عن المحبة الجوانية، في حين أن الكتابة اللاتنية تفعل العكس في محاولة للتنفيس وإخراج المكنونات الداخلية..

أجلسهم محمد سعيد في فناء رمليّ تحيط به أشجار النخيل، أحضر عدّة الشاي التي لا يخلو منها بيت صحراوي. ذلك أن عادات الصحراء تقتضي أن يحضّر الرّجل الشاي لضيوفه بنفسه.

لا حظ علي أن محمد سعيد يستعمل يده اليسرى بخفّة ومهارة، فسأله:

- عهدتك تستعمل يدك اليمنى، وها أنت تستعمل اليسرى...

- استعمل اليمنى في أمرين الخطّ والأكل، أما باقي الأشياء فاستعمل كلتا يديّ بنفس المهارة. أنا في الأصل أعسر، في طفولتي كان معلّم الكتّاب ينهاني عن الكتابة باليسرى لذلك تعلّمت الخطّ باليمنى.. معظم الخطّاطين يستعملون اليد اليمنى لأن الخطّ فن

نبيل ارتبط بالقرآن الكريم والمصاحف..

علّق عليّ بتهكم:

- يعني لو قطعنا يدك اليمنى، مثل ابن مقلة هل تستطيع أن تخطّ باليسرى بنفس الجودة؟

- أنا أظن أن ابن مقلة لم يكن أعسرا ثم تحوّل إلى الكتابة باليمنى، فلا يجوز أن يكون قد كتب القرآن مرّتين بيده اليسرى، ولكن حينما قطعت يده اليمنى أجاد باليسرى، لأن الخطّ كان يسري في عروقه، ويجري منه مجرى الدّم، لذلك كان من السهل عليه أن يفعل ذلك..

وهو يودع محمد سعيد. انتحي به عليّ جانبا كي يخبره بأن السيّد نافري محقّق صحفي، جاء من اجل إنجاز تحقيق عن سر اختفاء «كتاب الهدنة» من متحف آيا صوفيا باسطنبول، وأن مصالح الأمن أجبرته على مرافقته في رحلته إلى تقرت، حيث عائلة الشخص الذي تحوم الشكوك بأنّه يقف وراء عملية السرقة. حين لاحظ دهشته، قال له:

- هل تتذكر الجيلاني عابد الذي كان يدرس معي في نفس الدفعة..

حكّ محمد سعيد جبينه قليلا ثم قال له:

- هل تقصد صاحبك البرذون؟

- نعم هو ذاك.. هو المتهم بسرقة العمل. ويبدو أنه محلّ بحث من طرف البوليس الدولي.

- تقصد «كتاب الهدنة» الذي كتبه ابن مقلة.. مستحيل الأمر يحتاج إلى توضيح. هناك التباس في القضيّة ..

حين اقترب منهما السيّد نافري، غمز له بأن يسكت، فغيّر مجرى الحديث تماما:

- السيّد نافري يجب أن أراك صباح الغد قبل أن تغادر حتّى أعطيك تذكارا. كي لا تنسى زيارتك لغرداية ..

ضغط على يده بقوّة، وهو يودّعه..

- إلى الغد..

11

بمجرد دخولهم إلى فندق الجنوب تفاجئوا بوجود زينب في بهو الاستقبال، وما إن رأتهم حتّى هرعت نحوهم، وهي في حالة هلع وتأثر شديدين، وسرعان ما انهارت على صدر السيّد نافري باكية. وهي تصرخ:

- لقد أراد قتلي بعدما غادرت مباشرة...

هدأ السيد نافري من روعها، أجلسها على أقرب أريكة، ثم طلب لها كأس ماء، وراحت تسرد على مسامعم ما وقع لها، وهي تنشج، كيف أنها حين رجعت إلى بيتها بعد توديعهم، وجدت أخاها السلفيّ من أبيها، الذي كان يسكن مستقلا بعائلته بعيدا عنهم ينتظرها، فقد أخبره الجيران بأنّها جلبت رجلا أجنبيا إلى حيّ «الشطيط». وأدخلته البيت العائلي، دون محرم، ودون مراعاة لحرمة البيت. لذلك انهال عليها ضربا وتعنيفا، ثم جرّدها من هاتفها المحمول واستولى على شريحته. وهدّدها بالقتل إن هي تجاوزت عتبة البيت مرّة أخرى، ثم خرج مغاضبا:

- عندما أجد ذلك الكلب النّجس سوف يكون لي معه

حساب آخر.. ثم أعود بعدها إلى السّجن فلن يكون أقسى من معتقلات رقّان..

عندما لم تجد زينب وسيلة للاتصال بالسيد نافري، فرّت من بيت العائلة، بعدما أخبرت أمها بأن ستحتمي بخالها بعد أن عجزت والدتها عن حمايتها من جبروت أخيها.

ثم أضافت بعدما شربت قليلا من الماء:

- لقد أردت أن أحذرّك مما يمكن أن يصيبك منه.. فهو أرعن ولا يتورع عن فعل أي حماقة...

كان لزينب أخ من أبيها، فبعد طلاقه من العارم تزوج أبوها إحدى قريباته، وأنجب منها عددا من الأولاد أكبرهم النذير، توقف مساره الدراسي في مرحلة مبكرة، فأصبح يعمل أجيرا في البناء والمقاولات، ثم انخرط مع المنخرطين في حزب الفيس. ثم كان مع من سيق إلى معتقلات الصحراء بداية التسعينيات بسبب ميوله للجبهة الإسلامية للإنقاذ. بعد توقيف المسار الانتخابي وحل الحزب، زج بأتباعه وقادته في السجون والمعتقلات ..

في أول الأمر كانت القطيعة بين زينب ووالدها، فلم يكن يصلها أو يعطف عليها، كما يفعل الآباء، فلم يكن ينفق عليها قليلا أو كثيرا، ولم يحدث أن زارها أو أخذ بيدها أو رافقها إلى مدرستها. أحست باليتم كما لم يحس به الأيتام الذي فقدوا آباءهم، وكم تمنت أن يكون

والدها حاضرا في نجاحاتها المدرسية نوهي تتسلم جوائز التقدير، وشهادات التفوق، ثم تلتفت فتجد كل زميلاتها محاطات بآبائهن إلا هي، ثم سرعان ما تتعزى عن ذلك بحضور أمها التي تغمرها بكل ما أوتيت من عنفوان الحنان..

كانت أمها العارم هي الأب والأم في الآن نفسه، عانت الأمرين في الحصول على لقمة العيش لها ولابنتها، عن طريق الخدمة في بيوت الميسورين والخياطة والغزل والنسيج، ثم مارست المتاجرة بالذهب، وتركت خدمتها القديمة بعد أن توسعت مداخليها وأصبحت تدر عليها ما يكفيها ويفيض عن حاجتها، إذ كانت تشتري قطع الحلي المستعملة القديمة بأسعار منخفضة، وتعيد تشكيلها عند الصاغة بأشكال وتصاميم جديدة تلائم روح العصر والموضة السائدة، ثم تعيد بيعها بأثمان مربحة، وانتهت بأن أصبحت تملك أحد أشهر محلات المجوهرات في المدينة، فعلت كل ذلك من أجل أن تمكن ابنتها من متابعة دراستها بنجاح. حتى صارت ما هي عليه.

عندما انقلبت الحال وضاقت سبل العيش بأبيها، أصبح يرسل ابنه النذير لابنته زينب طالبا مساعدتها وعونها بما تستطيع، فلم تكن تبخل عليه بما يسعد قلبه ويسد حاجته، ولم تتأخر يوما عن زيارته وإدخال الفرح عليه، وعلى عياله في الأعياد والمناسبات كلها..

تأسف السيّد نافري على أنّه كان السبب فيما وقع لها، ألحّ عليها أن تبقى معه، لكنّها أخبرته بأنّها ستلجأ إلى خالها في مدينة البيّض،

ريثما تجد حلا نهائيا، ثم ودّعها، وهي تستقلّ سيّارة أجرة كانت تنتظرها عند مدخل الفندق. أوصاها بأن تهافته عند الحاجة على رقمه الثاني الذي سلّمه لها في قصاصة صغيرة، مطمئنا إياها بأنه سيفعل ما بوسعه من أجل مساعدتها.

بعد هذه الحادثة أخذت الأمور منحى آخر، وتوقّفت رحلة السيّد نافري التي كان مقررا أن تقوده إلى «تقرت». بعد اتصالات قام بها عثمان إلى مرؤوسيه من المسئولين الأمنيين المكلفين بتأمين رحلة السيّد نافري.

في صباح اليوم التالي حضر إلى الفندق أحد كبار مسئولي الأمن لكي يعتذر للسيّد نافري، ويخبره بأنهم قرّروا العودة به إلى الجزائر العاصمة بالطائرة في رحلة المساء. خوفا على حياته من التّهديد الذي وصل عبر زينب..

حاول السيد نافري مراجعته، لكن الرجل البدين كان صارما، ولا يستطيع مخالفة الأوامر الفوقيّة التي وردت إليه. ثم التفت إلى عثمان وإلى عليّ قائلا:

- أما أنتما فستعودان إلى سطيف بالسيّارة.

لكن علي ردّ بتحدي من أحسّ بأن كرامته قد جرحت:

- أسمح لي أنا لا أستطيع العودة. عليّ أن أكمل الرحلة إلى تقرت لوحدي.

- أنت حرّ.. ولكن تحمل مسؤولية المخاطرة..

ودّع عليّ السيد نافري، على وعد بأن يتواصلا لاحقا.

عندما التقى علي بمحمد سعيد أخبره بكل تفاصيل ما جرى البارحة، نصحه بالعودة، ولكنه أصرّ على مواصلة الرحلة استجابة لنداء في أعماقه. طلب منه أن يوصله إلى محطة الحافلات بسيّارته، حجز في حافلة متوجهة إلى تقرت تنطلق بعد ساعتين، فكانت فرصة كي يتحدث معه في أمر «كتاب الهدنة».

أكد له بأن هذا الأثر مزيّف، ولا وجود له إلا في كتب التّاريخ، لقد بحث كثيرا في الخط العربي، وزار تركيا، عندما كان يعد رسالة الدكتوراه عن خطوط المصاحف، ولم ير هذا الكتاب، ثم إنّه يعرف كثيرا من الخطّاطين والباحثين، ولا أحد منهم كلّمه عنه، لاسيما وأنه لابن مقلة الشهير.

لم تحتف أمّة من الأمم بالخطّ والزخرفة قدر احتفاء المسلمين بهذين الفنين الذين عوضا غياب التصوير والنحت، ولقد أبدع المسلمون في الخطّ أيّما إبداع جعلهم يباهون بنفائس المخطوطات والآثار الخطّية التي مازالت شاهدة على العبقرية الفنية التي لا تُضاهى.

لقد ارتبط الخط العربي منذ البداية بالقرآن الكريم، نتيجة احتفاء الخطّاطين بنسخ المصحف الشريف، وتزيين المساجد بالآيات والأحاديث الشريفة. ما أكسبهم مكانة عالية انعكست على مكانتهم

الاجتماعية بشكل عام. ومنح الخط ّوالخطاطين هالة ربطتهم بالمقدّس والديني، وحوّلت الخط إلى تقليد يحتاج إلى أخلاقيات ومؤهلات خاصة. فهو كما يقال عنه «الخط هندسة روحانية ظهرت بآلة جسمانية».

من وجه آخر ارتبط الخط ّباللغة العربية التي تعتبر إحدى مظاهر الإعجاز والاعتزاز العربي، بل ومقوّما رئيسا من مقوّمات الهويّة العربية. وهو ما جعله قمّة الفنون النبيلة التي تؤدي دورا حضاريا .لا غنى عنه. فهو الذي نقل الثقافة من طور الشفاهية إلى التدوين، وصار وعاء لاحتواء الأدب العربي نثره وشعره ولولا جهود النسّاخين والخطاطين ما وصلنا شي من ذخائر المخطوطات والدوواين والمصنفات الأدبية والعلمية.

من الناحية الجمالية لا يخفى على احد ما للحرف العربي من قيم تعبيرية، ومن مرونة تشكيلية، ومن ثراء بالأشكال والأنواع تجعله قادرا على استيعاب كل العناصر الفنية ألأخرى..

يرجع فضل التأسيس للخط العربي كفنّ قائم بذاته له أسسه وقواعده، إلى الوزير الخطّاط ابن مقلة، الذي استمدّ أنواعه اللينة من الأشكال الصارمة للكوفي الصلب. وقد أكمل ابن البوّاب وياقوت المستعصمي ما بدأه ابن مقلة من إعطاء الصبغة الجمالية لفنّ الكتابة التي ظلّت بلا تقعيد فني عصورا طويلة.

لقد احتضنت كل الأمم فنّ الخط العربي، حتى صار ملكا مشاعا لمن يبدع فيه وبه لا غير، بل صار تراثا عالميا، ولم يعد يملك من الاسم إلا الأبجدية العربية التي كان يكتب بها، ولذلك فقد أبدع كل بلد أسلوبه في الخط العربي، ووضع عليه لمسته الجمالية التي وسمته بميسم هويّتها، ففي إيران كان الخط الفارسي هو الغالب، وفي المغرب العربي انتشر الخط المغربي في الزوايا والكتاتيب والرباطات وصار عنوان هويّة هذه المنطقة وانتمائها.

تشكل منجزات محمد هاشم البغدادي وحامد الآمدي وسواهما من الخطّاطين، قمّة ما وصل إليه الخط العربي من تطور، وأسمى صورة تجلّت فيها عبقرية الخطّاطين من حيث الكمال الفني المنشود، من النادر أن تتكرّر.

جمالية الحرف العربي جعلته مناط الرهان في الكثير من الحركات التجديدية في الفن المعاصر، فقد أخرجته من قالبه التقليدي لتجعل منه عنصرا مثريا للوحة، إذ تحول في تجريدات كثير من الفنّانين العرب إلى شكل راقص بالألوان منحها الكثير من الغنائية والمعاني. كما في لوحات شاكر حسن آل سعيد وضياء العزاوي والصكّار ووجيه نحلة. ومحمد خدّة والطاهر ومّان ورشيد قريشي ..

إلى أن برزت حركة الحروفية العربية التي حاولت أن تحافظ على وفائها للخط العربي، وان تكون وليدته وامتداده. في فترة وصلت فيه التجريدية العربية إلى مأزق حقيقي، جعلها أسيرة النمطية والتكرار

لفترة طويلة.

ظل الخطّ العربي على مرّ العصور محافظا على تقاليده الصّارمة التي توارثتها أجيال من الخطاطين، من قبيل ضرورة الحصول على إجازة من خطّاط متمرس قبل التمكن من وضع التوقيع على اللوحة الخطيّة. لذلك فقد ظلّ حكرا على نخبة من الفنّانين المتشبّعين بأخلاقياته وبالرغبة في ممارسته.

حدثه محمد سعيد بانبهار ظاهر عن لقائه بأستاذه الخطاط التركي حامد الآمدي، آخر عمالقة هذا الفن، بمكتبه في إسطنبول، وظل يتردّد عليه، إلى أن تمكن من الحصول على إجازته في الخط العربي، عام 1969.

تذكر عليّ انه شاهد شريطا على إحدى القنوات عن آخر أيام هذا الخطاط المتوفى عام 1982، بدأه بعبارة لجلال الدين الرومي» يقول القلم أنا الذي املك الورى، والذي يملكني اهديه إلى جنات النعيم..".

كان تبدو عليه علامات الشيخوخة وهو يتكلم بلغته التركية، مرددا « بأنه ما دام في الجنة قصب وأوراق فلا أبالي بالموت « ويكتب بيد مرتعشة أمام الكاميرا، بخط الثلث الجلي الذي برع فيه. ما شدّ انتباه علي هو نقطة النهاية الكبيرة التي رسمها حامد الآمدي في آخر الشريط. كأنه يودّع الحياة .

أنهى محمد سعيد حديثه بالقول:

- أؤكد لك يا عليّ. الجيلالي برئ من التّهمة التي لفّقت له.. إن في الأمر خدعة أو لبسا ستزيله الأيام..

***

عندما استقلّ علي الجنوي الحافلة استسلم لنوم متقطع ملئ بالكوابيس والهلوسات، من جرّاء التّعب الذي نال منه، بسبب الأرق الذي حرمه النوم في الليلة السّابقة، إذ لم يغمض له جفن.

قضى عليّ ليلته الماضية يدخّن، حاول استدراج النّعاس بمشاهدة التلفزيون، أو بالقراءة فلم يجدِ الأمر، ملأ المغطس بالماء الدافئ واستلقى فيه، ثم أطفأ الأبجورة واستلقى على السّرير، وراح يفكر بمصير عابد الجيلاني، أين يوجد الآن؟ وهل حقا هو من سرق كتاب الهدنة؟ فكر أيضا في مصير زينب ومحنتها مع أخيها المتطرف، ثم في مصير عثمان السائق، وهل سيحملونه تهمة التقصير في عمله؟ ثم فكّر في موقف السيّد نافري الذي لم يتمكن من إتمام تحقيقه، وحرمانه من زيارة تقرت البلدة التي ولد بها السارق المفترض.. لم يستطع تحمّل تدافع الأسئلة والهواجس في رأسه، خرج إلى الشرفة كي يستنشق الهواء، نظر إلى الأفق فبدا أن الخيط الأبيض للفجر بدأ يشقّ حجب الظلام، تمدّد قليلا، على أمل اغتنام ساعات الفجر

الأخيرة في النوم، فلم يفلح وراح يخطّط لرحلته إلى تقرت، وكيف سيلتقي بعائلة عابد الجيلالي، التي لا يعرف عنها شيئا، ثم ماذا سيقول لهم. وهل هم على علم بالمشكل الذي يتخبط فيه ابنهم؟ وهل سيخبرهم أم لا؟

كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة فجرا حين قرّر الخروج للبحث عن مقهى قريب من الفندق، فقد كان يلزمه قهوة ثقيلة...

أيقظه أحد الرّكاب من نومه، يربّت على كتفه ويقول له:

- لقد وصلنا إلى تقرت..

أحسّ بألم في رقبته، بسبب وضعية نومه السيئة طوال الرحلة الليلية، حين نزل من الحافلة وجد الظلام يلف المكان، كان يهم بالخروج من بوّابة المحطّة حين عرض عليه صاحب سيّارة أن يوصله إلى وجهته:

كان يريد أن يقول له خذني إلى أي فندق، ثم تردّد قليلا وقال له:

- توصلني إلى زاوية تماسين؟

- طبعا.. 400 دج فقط.

بعد مسيرة نصف ساعة كانت السيارة قد تجاوزت مدخل الزاوية الكبيرة، هرع إليه أحد مقاديم الزاوية بمجرّد أن نزلها، ووطئت قدماه

أعتابها، قاده إلى المضافة، وهي عبارة عن غرفة يوجد بها بعض الزّائرين، منهم من نام، وبعضهم مازالوا يدردشون، سأله المقدّم إن كان قد تعشى فأجابه بالنّفي، غاب برهة وعاد يحمل صحن كسكسى، تناول منه بعض الملاعق، فوجده باردا..

وقف المقدم قليلا كأنما ينتظر شيئا ما، ثم انصرف قائلا:

- ربي يتقبل الزّيارة.. تصبحو على خير.

تمدّد على المطرح المتهرئ، غطّى قدميه بالبطانية القديمة، وتوسد حقيبته الصغيرة، واستسلم للنوم.

أيقظته حركة الزائرين وقت الفجر، وهم يستعدون للصلاة. توجه إلى الميضأة، ثم دلف معهم إلى المسجد للصلاة. بعد الفراغ من الصلاة شكّل المريدون حلقة حول الشيخ الذي أقعى على ركبتيه في المحراب، وأرخى قلنسوته على وجهه، وراحوا يلهجون بالأذكار، ويغرقون في الأوراد والحضرة بقيادته.

بعد الفراغ من الحلقة، هرع الحاضرون إلى تقبيل رأس الشيخ، فيما تأخر عليّ رغبة في الخلوة به والحديث إليه منفردين. سلّم عليه وقبّل كتفه ورأسه ثم جلس إليه:

- أتمنى أن يكون الشيخ التّيجاني بعين ماضي قد أخبرك بمجيئنا. الحقيقة أن صديقا فرنسيا صحفيا كان برفقتي، وصل

إلى غرداية ثم جدّ طارئ منعه من الحضور..

- مرحبا بكم في كل وقت.. أنا في خدمتك.

- أنا في حقيقة الأمر فنّان وأستاذ للفنون الجميلة بمدينة سطيف. ولدي صديق يوجد حاليا بباريس. وأتمنى لو أستطيع زيارة عائلته هنا في تماسين..

- هل تقصد الجيلاني عابد؟ هو محبّ وصديق لنا سبق أن ساعدنا في إنجاز بعض أعمال الزّخرفة لهذا المسجد والضّريح منذ ما يزيد عن عشرين سنة.

حينها كان والدي هو شيخ الزّاوية.. أنا أيضا درست العلوم الدقيقة بباريس. سأرسل معك من يقودك إلى «النزلة» حيث عائلته..

ثم أشار إلى المقدّم الذي استقبله البارحة، أوصاه به وانصرف. معتذرا بكثرة مشاغله..

قاده المقدّم إلى حيث تناول فطور الصباح، كسرة قمح ساخنة وقهوة محلاة، راح يجول به في أرجاء الزاوية وأعتابها وأضرحتها، وهو يسرد على مسمعه سيرة مؤسسها الأول الشيخ الأعظم سيّدنا أبو الحسن الحاج علي التّماسيني حين وقفا على ضريحه، للتبرّك به، فقد كان رجل ورع وزهد نذر نفسه «للويحة والمسيحة والسبيحة»

(اللوحة والفأس والمسبحة)، ومما يروى من كراماته أنه رمى عرجون تمر من تماسين إلى فاس. استخلفه الشيخ الأكبر مؤسس التّيجانية بعده، وأتمنه على ولديه اللذين أحضرهما من فاس إلى عين ماضي، عملا بوصيّة شيخه بأخذ ولديه إلى الصّحراء لقول شيخه «أولادي لا تليق بهم إلاّ الصّحراء . يعني بذلك . عين ماضي». وكان قد أذن له بتأسيس زاوية تماسين بهذه المنطقة التي تسمّى تملاحت..

دسّ علي في يد المقدّم وورقة نقدية، ففهم أنه يستعجله للمغادرة إلى الزاوية العابدية، وتوقّف عن الحديث المستفيض عن الزّمن الغابر للزّاوية وأوليائها ومشايخها.

عندما ابتعدا قليلا عن بوّابة الزاوية، راح المقدم يلوّح بيده للسيّارات المارة، وجدا أخيرا من يقربهما من وجهتهما، تذكّر كيف كان الجيلالي عابد يصدّع رأسه بالحديث عن الزوايا والطّرقية التي لم يكن يشغل بها تفكيره أو يحبّ الخوض في شؤونها ووشجونها. كان قد رمى خلف ظهره كل ما علق بذاكرته من مشاهد الحضرات والمريدين، وطقوس التبرّك وحلقات الذكر التي عايشها في زاوية بلدته.

اجتازا القصر القديم بشوارعه الضيّقة، وشوارعه المتربة راجلين، وحين مرّا أمام مسجد قديم، طليت جدرانه بالأخضر، كتب في أعلى بابه بخط تقليدي «مسجد سيّدي العابد». تذكّر أن الجيلاني كان يقول دائما بأنه سليل سيّدي العابد الذي جاء في القرن السّابع عشر من المغرب الأقصى، يرافقه ثلاثة من أتباعه، واستقرّ في مكان سمِّي

بالخلوة، وعمّر المكان ليتحوّل إلى بلدة تحمل اسمه، بعدما بني فيه هذا المسجد..

أشار المقدّم إلي شيخ يجلس في مدخل بيت مقوّس، على هيدورة من صوف:

- ها هو الطّالب سي البشير عابد.. والد صاحبك..

بادره المقدّم بالسّلام، وانحنى يقبّل رأسه، ففعل عليّ مثله دون أن ينبس ببنت شفة. بدا له الشيخ السبعيني غير مبال بحضوره، وراح يتحدث مع المقدّم. ويسأله عن أحوال الخليفة وأخبار الزّاوية متجاهلا حضوره. أحسّ بقلبه يخفق بسرعة كبيرة، كأنه اكتشف أنه لم يحسب حسابا لهذه اللّحظة، ولم يعدّ العدّة لمواجهتها، ماذا عساه يقول له، وأي شيء جاء به إلى هنا؟

راح يتفحص عمامته البيضاء، وخطوط جبهته، وجهه الصّافي، ولحيته البيضاء الخفيفة، لباسه الصّحراوي الأبيض، حين مدّ سي البشير يده اليسرى بحزمة أقلام صنعها من القصب، كي يسلّمها إلى طلبة الزاوية، يكتبون بها على ألواح القرآن. حينها انتبه عليّ إلى أن كم يده اليمنى كان فارغا، وكان مقطوع الذراع. أي أنه كان «مانشو» بتعبير عابد الجيلالي عن أمحمد إسياخم أيام كان أستاذهما في مدرسة الفنون الجميلة..

استدار الحاج البشير بكليته إلى الباب، وطرق عليه، بقبضته بقوة

زاعقا:

- لاتاي(الشاي) للجماعة يا امرأة..

نظر إلى عليّ، ثم غضّ بصره، ففهم أنه يسأله أو يريده أن يتكلم، لكن المقدّم تدخل:

- هذا ضيف سيّدي البشير التيجاني، أوصاني أن أوصله إليك، وهو صاحب ولدك الجيلاني.. جاء يزورك.

فردّ باقتضاب وهو منهمك في قطّ أقلام القصب:

- مرحبا.. هل يتكلّم معك بالهاتف أو يتّصل بك؟ نحن قاطعنا. كان يرسل لنا حوالات ثم توقف من فترة..

قال عليّ:

- الحقيقة أنا أيضا لا اتّصل به.. آخر مرة التقيته في باريس من سنتين .. درسنا معا في العاصمة، ومن بعد في موسكو، ثم راح كل واحد إلي حال سبيله .

ردّ بحسرة مكتومة:

- إذا كلّمته أو كلّمك قل له والدتك تسأل عليك.

سحب صينية الشّاي، حين انفرج الباب، صبّ ثلاث كؤوس، شرب علىّ رشفات منها في صمت، فيما كان هو منشغلا بتقطيع

القصب بمهارة كبيرة .

ونحن نودعه، دفعت إليه ببعض المال، فأقسم ألا يأخذه، حاولت أن أقنعه بأن يسلّمه للوالدة، فقال لي:

- ها هي في الداخل، سلّمه لها أنت ..

تردّد قليلا، ثم دخل فوجد امرأة هزيلة تقف في سقيفة البيت، قبّل رأسها الملفوف في وشاح مورد، سلّمها المبلغ المالي، وتركها تغالب دموعا كانت تترقرق في عينيها المنطفئتين، كان متأكدا أنها كانت تسترق السّمع خلف الباب لكل ما دار بينهم من حديث عن فلذة كبدها عابد الجيلاني .

في طريق العودة سأل المقدّم إن كان للطّالب البشير، ولد غير الجيلالي، فأخبره بأنّ ولده الثاني مات في بئر، ومن يومها باع أرضه ونخيله، وهجر الفلاحة وخدمة الأرض. كان يريد أن يسأله عن قصّة يده المقطوعة، هل هي خلقة ولدت معه أم هي نتيجة حادث ما، ومن تلقاء نفسه أخبرني بأنه حافظ للقرآن، يعيش على صدقات المحسنين وهباتهم. ثم أخبره بأنهم يقولون بأنه حين كان شابا قطع يده بواسطة منجل لحظة لدغته أفعى سامة، فأنقذ حياته من موت محتّم. قبل أن يسري السمّ في عروقه.

بشكل مفاجئ قرّر علي الجنوي العودة في نفس اليوم، حجز في أوّل حافلة تسافر إلى بسكرة، ومنها إلى سطيف...

12

قضى عليّ اليومين التاليين لعودته من الصحراء، مختليا بنفسه في ظلمة شقّته، مستعيدا تلك اللحظات الاستثنائية التي شهدها في رحلته تلك إلى تقرت. كان يحسّ بوخز حاد في ضميره، كلما استعاد تلك النظرات الحادة للحاجة حدّة، والدة عابد الجيلالي، وعيناها المغرورقتين اللّتين كانتا تقولان الكثير، على الرّغم من أنه لم يخبرها، وفضّل التكتّم على ما جاء من أجله. لكن يبدو أن قلب الأمّ كان قد أخبرها بكل شيء. فلا يمكن أن يخيب أو يخطئ طريقه إلى قدر ابنها الغامض. الذي قطع فجأة، وانقطعت أخباره ورسائله دون سابق إشعار.

كانت آخر برقية منه منذ خمسة أشهر، بشّر والده ووالدته بميلاد ابنة له، وأرسل لهما مبلغا من المال، كي يشتريا شاة ويقيما وليمة لأهل البلدة بهذه المناسبة...

عاد عليّ الجنوي إلى تأمل صورته مع عابد الجيلالي، راح يقلب أوراق الأجندة، عثر على البطاقة الصغيرة التي تحمل هاتف زنايدا

وبريدها الإلكتروني، خطر له أن يتّصل بها، من على هاتفه الثّابت شكّل الرّقم الدولي، لكنّه فوجئ بصوت على الطرف الآخر، يخبره بأن هذا الرّقم لم يعد في الخدمة. قرّر أن يكتب لها على بريدها الالكتروني، عسى أن يتلقّى ردا، وفي النهاية لن يخسر شيئا إذا فعل، والمهمّ أن يستنفد كل الحلول الممكنة.

أخذ حماما، حلق لحيته، وقرّر الخروج إلى أقرب مقهى أنترنت، فتح بريده الإلكتروني، وكتب إلى زنايدا رسالة مقتضبة:

«العزيزة زنايدا .. تحيتي ومودّتي. اتصلت هاتفيا على رقمكما دون جدوى، عائلة الجيلالي قلقة عليه. أرجوك طمئنيني عليه، هناك مذكرة بحث عنه من طرف البوليس الدولي. أنتظر ردّك. علي الجنوي».

خرج إلى مقهى قريب، تحسّس هاتفه الجوّال وجده مغلقا، أعاد فتحه، فوجد به رسائل قصيرة واحدة من زوجته تطلبه أن يكلّمها، وأخرى من الضابط محمود يطلب رؤيته لأمر ضروري. هتف إلى زوجته فأخبرته بأنها هتفت له كي تخبره بأنها وضعت مولودها في عيادة خاصة. وبأنها سجلتها باسم «باية» كما اتّفقا على ذلك منذ رأى صورتها لأوّل مرّة بالأشعّة فوق الصوتية في عيادة أخصائية طب النساء الدكتورة «باية بعزيز». حينما أخبرتهما بأنها بنت، وطلبت منهما أن يسمّياها باسمها لأنها عاقر.

طلب عليّ من زوجته صليحة أن تقرّب الهاتف من أذن باية حتّى يؤذن في سمعها، ثم أخبرها بأنه سيزورها بمجرد أن ينتهي من ترتيب بعض الأمور.

انحدر عليّ باتجاه مدرسة الفنون الجميلة، طلب من نائبه أن يواصل استخلافه فترة غيابه، ثم خرج باتجاه وسط المدينة، هتف للضابط محفوظ يريد لقاءه، ضربا موعدا في أحد المقاهي، لم يطل انتظاره حتى كان يجلس قبالته ويكاد ينفجر من الغيظ، ينفث الدّخان بقوّة ويحتسي قهوته بعصبية:

- لقد خدعنا ابن القحبة .. جاء من أجل صاحبته زينب، وكنّا نحن القوّادين كالأغبياء نعسّ عليه.

- تقصد السيد نافري؟ وجدت مكالمة منه ولكن لم أردّ عليه. ترك لي رسالة يقول بأنه يريد رؤيتي لأمر هام..

- لقد ترك بعض الأغراض في الفندق، وطلب أن نسلّمها لك لتوصلها إليه، وهو يلحّ عليك في لقائه، ربمّا لكي يعرف المزيد عن صديقك جيلالي العابد، خاصّة وأنك أكملت الرّحلة التي كان يتمنّى أن يعرف فيها أشياء كثيرة..

أخبره أن السّائق عثمان الذي كان مكلفا بمرافقتهم إلى رحلة الصحراء، قد عوقب بدعوى التقصير، وتمّ توقيفه ريثما يتمّ النظر في قضيّته، أما هو فقد تمّ توبيخه من طرف مرؤوسيه. وكانت الثغرة

الوحيدة في كل ذلك هي ترك السيّد نافري يرافق زينب إلى حي «الشطيط» الشعبي في الأغواط، حيث كان يمكن أن يتعرّض للموت، لو أنه صادف أخ زينب. وكان يفترض أن يمنع من ذلك أو على الأقلّ تتمّ مرافقته إلى هناك..

كانت عملية «le diamant noir» الاسم الذي أعطي لمهمة تأمين رحلة السيد نافري في الصحراء الجزائرية، تقتضي بأن تتم مرافقته في سرية تامة، دون إثارة الانتباه، لكن ما وقع لزينب، وعنوان الخبر البارز الذي ظهر على الصفحة الأولى لكبرى الصحف الجزائرية. « وفد من الأقدام السوداء في رحلة سرية إلى الأغواط» بقلم مراسل الجريدة الذي يبدو أنه كان قريبا من عائلة زينب. وعلى دراية تامة بذاكرة المدينة وتاريخها. وقد جاء في حيثيات الخبر بأن وفدا من الأقدام السوداء، يقوده أحد كبار الصحفيين الفرنسيين، كان بمعية فنانين وجامعيين جزائريين، قام بزيارة إلى مدينة الأغواط، وتمكن من زيارة البيت القديم الذي كان يسكنه مع عائلته قبل الاستقلال، كما زار الوفد معالم المدينة وزاويتها التيجانية.

أحرج هذا الخبر السلطات الأمنية والسياسية، وجعلها محل مساءلة، ما دفع بها إلى مراجعة ملف السيد نافري، وقد تأكد بما لا يدع مجالا للشك بأنه فعلا ابن لأحد الأقدام السوداء.

وجدت السلطات الأمنية هذه الفضيحة ذريعة لتوقيف رحلة السيد نافري، بدعوى أنها تشكل خطرا على حياته، لكن الحقيقة هي

أنه أصبح محل شك في أن يكون في مهمة جوسسة لحساب جهة خارجية ما..

تأفّف الضابط محمود بقوة، ثم أفرغ في فمه ما تبقّى في قعر الفنجان من بقايا قهوته، ثم قال، حينما قرأ في عيني عليّ عدم تحمّسه وتجاوبه معه:

- رجاء سيد على، هذه آخر خدمة نطلبها منك كي نطوي ملف «الديامون نوار» لو كان الأمر بيدي لأعفيتك، ولكن هذه توجيهات فوقية تتجاوزني. سنؤمن لك سيّارة تقلّك إلى العاصمة، اذهب إليه في فندق سان جورج، ولست ملزما بأن تقول له أي شيء.. ما قولك؟

- ربما أستطيع أن أسلمه الأغراض وانصرف لشؤوني فلدي زوجتى النفساء تنتظرني، ولديّ بعض اللّوحات آخذها معي إلى العاصمة لأشارك بها في بينالي الفن العربي. ولم يبق أمامي وقت كاف..

- موعدنا صباح الغد في مدرسة الفنون الجميلة، كي أسلمك الأغراض.

***

وصل عليّ إلى العاصمة منتصف النهار، فضّل أن يتخلّص من اللّوحات التي أودعها عند مدير متحف الفن المعاصر، لكي تعرض في بينالي الفن العربي، مع كثير من الأعمال الفنية من مختلف بلدان العالم. ثم طلب من السائق أن يوصله إلى بيت أصهاره بضاحية الأبيار، ومن ثم يستطيع المغادرة والعودة إلى موعده. أمضي الأمسية برفقة صليحة يلاعب ابنته باية، المولود الجديد الذي أثار غيرة شهد، التي بدا انزعاجها جليا من خلال تعلّقها بأبيها وتمسّحها به، ومزاحمتها لها في حجر والدها ..

كان يحسّ بنظرات العتاب في عيني زوجته، ذلك أنه لم يشاركها آلام وضعها، ويكون حاضرا لحظة ميلاد ابنته الثانية باية، كما حدث الأمر مع ابنته الأولى شهد. لذلك فقد فتح قلبه لها، وباح لها بكل ما حصل له في الأيّام الأخيرة، بسبب تورّط صديقه عابد الجيلالي، في سرقة «كتاب الهدنة»، لذلك فقد كلّف بمرافقة المحقق الصحفي السيد نافري، ومساعدته في استقاء بعض المعلومات عن المتّهم المختفي، الذي لم يعثر له على أثر حتّى الآن.

عندما حدّثها بتأثر عن رحلته إلى الصّحراء ولقائه بوالدي عابد، والألم الذي اعتصر قلبه وهو يقف موقف العاجز عن أن يقدّم لهما أية مساعدة، أو يخفّف عنهما قلقهما. أحسّ بتعاطفها معه، وغفرانها له تخلّيه عنها في وقت صعب، لأنها تعرف مقدار الصداقة التي تجمع بينهما..

أحسّت أنه لأوّل مرّة يفتح لها قلبه كما لم يفعل من قبل، وهي تعرف أنه بئر من التكتم والسرية، خاصة عندما يتعلق الأمر، بكل ما يحدث خارج بيتهما، وهي لا تتذكّر أنه حدّثها في أمور السياسة أو شؤون الحياة وشجون المجتمع، أو نقل لها أخبار ما يحدث معه في الخارج كما يفعل سائر الأزواج، فقد كان يكتفي بالحديث المقتضب فيما يخصّ حياتهما وعائلتهما.

أحسّت كأن شيئا تغير بداخله، وأن قصّة الجيلالي قد رجّت كيانه وأحدثت فيه شرخا كبيرا، فسرعان ما عبّر لها عن رغبته في أن يسافرا إلى البلد حيث والداه وإخوته، بعد أن تتعافى، لكي يقيما وليمة بمناسبة ازدياد باية. وهو الذي كان دائما يمانع ويتحجّج بكل الحجج حينما تطلب منه هي ذلك، ويكتفي بزياراته القصيرة في المناسبات.

أحسّ هو بألفة كبيرة وحميمية مفاجئة تجاه زوجته، انحنى عليها مقبّلا جبينها وخدّها، وشفتيها، دون اعتبار لمن قد يدخل عليه، ما جعلها تفلت من شفتيه وتصدّ قبله بيديها..

استأذنها في الانصراف، بدعوى أنّه لا يستطيع المبيت بسبب عدم صبره على التّدخين في هذه الشقّة الضيّقة، لاسيما وأن أباها مصاب بالرّبو. سلمها مبلغا من المال، و«خمسة» نحاسية اشتراها من رحلته إلى الصّحراء، طلب منها أن تثبّتها على جبين باية، كي تدفع عنها العين الشّريرة والنّحس. أخبرها بأنه سيلتقي السيد نافري، ثم يبيت في الفندق الصغير الموجود بساحة بور سعيد، حيث تعود أن يحجز

كلما حلّ بالعاصمة. كي يكون قريبا من «القصبة»..

بمجرّد أن خرج إلى الشارع أشعل سيجارة وراح ينفث دخانها في الأعلى كمن يطلق سهاما من دخان على زرقة الأفق، هتف للسيّد نافري يذكره بموعدهما، مشى قليلا، ثم رمى سيجارته وسحقها بقدمه. وما هي إلا دقائق من الانتظار حتى استقلّ سيارة أجرة باتجاه فندق «سان جورج». حيث كان السيد نافري ينتظره..

بدا السيّد نافري، وهو يستقبله في كافيتيريا الفندق بحميمية خجولة وابتسامة باهتة، في حالة تبعث على الشّفقة، كأنه لم يحلق لحيته منذ آخر مرة التقيا فيها، أنست عليّ كل كلمات التّقريع والعتاب التي كان حضّرها له، كان قد استجمع شجاعته وجرأته حتى يلقنه درسا جرّاء خداعه له، واستغبائه إياه. قبل أن يطلب عليّ قهوته الثقيلة، بادره السيد نافري بالقول:

- أنا أعرف أنّك غاضب منّي، ومن حقّك أن ترفض لقائي، وتتّخذ موقفا منّي، ولكن أرجو أن يتّسع صدرك لي، فأنا مدين لك ببعض التبريرات التي كان من المفروض أن أخبرك بها قبلا، ولك أن ترفضها أو تقبلها..

كظم عليّ غيظه، وأرجأ انفجاره في وجه محدّثه. بدا له أنه أهون من أن يشتمه، ولا يستحقّ أن يصفعه أو يبصق في وجهه، لكنّ السيدّ نافري تمادى حين أردف:

- أنا مثلك عندي نيف جزائري، ولم أكن أرضى لزينب ما تعتقد

أنه خيانة لك. ما رأيك لو قلت لك إن زينب في مقام أختي، ولا يمكن لي أن أدنس شرفها..

حينها انفجر عليّ ضاحكا، حتى شرق بالقهوة ودخان سيجارته، ناوله السيد نافري كأس الماء، ثم أردف:

- جدي كان يملك بيتا في حي الشطيط بالأغواط، حيث ولد والداي، وحين غادرنا الجزائر فجر استقلال الجزائر، كان أبي في سن الثامنة عشر. أخبرني والدي قبل وفاته بسنوات بأن العارم أم زينب كانت تعمل خادمة عندهم، وكانت على علاقة حميمة بوالدي. وقد مارس معها الجنس مرّات كثيرة. ثم انقطعت عن الخدمة. تزوّجت أحد أقربائها، لكنّه سرعان ما طلّقها، وقد قيل وقتها بأنه لم يجدها عذراءً، فعادت للخدمة في بيت جدّي، وقد أسرّت لوالدي بأنّها حامل منه، لكنّه لم يستطع فعل شيء لأنّ إعلان الاستقلال عام 1962عجّل برحلينا..

وأردف بتأثر:

- كل ما استطاع جدّي ووالدي فعله كتكفير عن ذلك أنّهم قبل مغادرتهم كتبوا تنازلا عن بيتهم باسم عائلة العارم، ومكّنوهم من الانتقال إليه بدل ذلك البيت القديم الذي كانوا يسكنون به على طرف المدينة. وتركوا لهم أثاثا فرنسيّا فاخرا.. والدي كان يتألم طوال حياته ندما على ذلك القدر البائس.. ..

قاطعه عليّ:

- رجاء توقف مازالت كذبتك الكبرى مستمرّة.. أنا مضطّر للمغادرة.

حينها مدّ السيّد نافري يده بنسخة مصفرّة قديمة من عقد التّنازل الذي حرّره جده عام 1962 لفائدة بختي العارم. ثم نسخة من رسالة اعتذار كتبها والده بخط يده للعارم، ثم قال بهدوء:

- السيد عليّ، ليس هناك ما يدفعني للكذب عليك.. رجاءً تقبّل دعوتي على العشاء الليلة.. وسأكون صادقا معك حتى النّهاية.. في انتظار ذلك تعال نكمل حديثنا في حديقة الفندق ..

حاول أن يعتذر له لكنّه وجد نفسه مضطرا لمجاراته منتظرا أن يسأله عن عائلة عابد الجيلالي، أو رغبة في أن يعرف ما يريده حقا.. لكن السيد نافري لم يفعل، وراح يواصل حديثه، وهما يتمشّيان وسط أشجار الحديقة التي أضيئت للتّو بسبب حلول الظلام ..

حتى آخر حياته، كان والده يستعيد تلك اللحظات الأخيرة التي غادر فيها ميناء الجزائر، هو وكثير من الفرنسيين والأقدام السوداء ممن حملوا حقائبهم وغادروا باتجاه مرسيليا إلى غير رجعة، لم يحملوا معهم غير الحسرة والذاكرة الملغمة بالحنين إلى وطن ابتكرته أحلامهم، ولم يخطر ببالهم أنهم سينفون من جنته.

في كل مرّة كان يفاجئه متلبسا بنوبة الحنين والبكاء، وهو يستمع إلى أغنية للمغنّي الفرنسي اليهودي، المولود في قسنطينة، أنريكو ماسياس:

j'ai quitté mon pays

هذه الأغنية التي تعد نشيد النوستالجيا لهؤلاء الذين لم يتخيلوا بأنهم سيرحلون يوما عن الأرض السمراء. التي كانت مسقط رؤوسهم.

"غادرت بلادي،
غادرت بيتي وحياتي،
حياتي الحزينة تشدّني بلا سبب.
غادرت شمسي وبحري الأزرق،
هاهي الذكريات تستيقظ فيّ بعد رحيلي،
شمس بلادي الضائعة،
مدن بيضاء أحببتها،
فتيات عرفتهن فيما مضى،
تركت صديقة مازلت أرى عينيها المبلّلتين بالمطر،
مطر الوداع.
أرى أيضا ابتسامتها قريبا من وجهي،
كم كان الجوّ رائعا في أمسيات القرية.
لكن على ظهر المركب الذي يبعدني عن رصيف الميناء.
صفعتني السلسلة التي في الماء مثل السّوط .

نظرت طويلا في عينيها الزرقاوين الهاربتين،

لأن البحر أغرقها في الحسرة..»

هذا المغني، حاول مرّة أن يزور الجزائر، في وفد الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي. لكنه لم يفلح بسبب معارضة جمعيات وأحزاب جزائرية لذلك. ما حال دون تحقيقه لرغبته في زيارة مدينته قسنطينة التي ولد بها وتشبع فيها بالمالوف القسنطيني.

في السنوات الأخيرة صار بعض من هؤلاء الأقدام السوداء، يزورون الجزائر خفية متنكرين في زي سيّاح فرنسيين، مسكونين بالحنين إلى أرض ميلادهم ورغبة في استعادة شيء من ذكريات طفولتهم القديمة على هذه الأرض. فتؤمن لهم السلطات الجزائرية الحماية أينما حلوا، وفي أي مدينة أو حي يزورونه، خوفا على حياتهم وعلى سمعة الجزائر، بسبب الظروف الأمنية التي عاشتها الجزائر.

ظل والد نافري قبل وفاته يحنّ لزيارة الجزائر، خاصة بعد وفاة زوجته، فقد ضاعفت الوحدة من وطأة الحنين على قلبه، وقد تمنّى أن يتمكن من لقاء العارم حتى يعتذر منها. وفي فترة مرضه بالسرطان أوصى ابنه نافري بأن يفعل ما بوسعه من أجل أن يحقق له أمنيته..

استعمل نافري كل فنون البحث والاستقصاء التي تعلّمها كصحفي من تحقيقاته، من أجل البحث عن عائلة بختي العارم، إلى أن اهتدى إلى زينب عبر شبكة الإنترنت، من خلال محرّكات البحث التي قادته

إلى مقالات نشرتها في مجلات علمية محكّمة، ثم راسلها على بريدها الإلكتروني، تواصلا بكل الوسائل الممكنة، إلى أن تمكّن من لقائها بباريس بمناسبة رحلة علمية قادتها إلى هناك.

حين مدّ له بعض صوره مع زينب في باريس تأكد عليّ بأنها ليست المرّة الأولى التي يلتقيان فيها، وقد كان ذهابه معها إلى حيّ «الشطيط» حتى يتمكّن من رؤية والدتها التي حمّله والده رسالة اعتذار لها، لكن الأمور جرت على غير ما خطّط له..

وهما على طاولة العشاء، أخبره السيد نافري بأنه آلى على نفسه أن لا يتخلّى عن زينب في محنتها، وسيسعى من أجل أن يمهّد لها طريق الهجرة والاستقرار في باريس خوفا على حياتها. فهي أخته التي لم تلدها أمه. بل هي من صلب أبيه..

لقد ساقه القدر إلى الجزائر من حيث لا يحتسب، بأعجوبة أقنع مسؤوله في الجريدة بضرورة إنجاز تحقيق عن السّارق الغامض الذي لم يتمكن البوليس الدولي من العثور عليه. كانت تلك هي فرصته للسفر إلى الجزائر، لكنّه لم يستطع أن يصارح أحدا برغبته السريّة في زيارة الأغواط التي كانت سبب توقف رحلته نحو الصحراء. مقتفيا أثر عابد الجيلالي، ومنها سينتقل إلى القاهرة، لكي يتأكّد إن كانت هناك صلة ما بين، سرقة «كتاب الهدنة» وسرقة لوحة «زهرة الخشخاش» في نفس الفترة من متحف محمود خليل بالقاهرة، يوم 21أوت 2010. بحسب ما قرأ في الصّحافة.

قاطع عليّ السيد نافري الذي كان مسترسلا في سرد أحداث الواقعة:

- هل قلت إن ذلك كان يوم 21 أوت.

- نعم.. لماذا؟

ابتلع عليّ ريقه، وبدا عليه الحرج، وكأنه أصيب بلسعة حادة. ولكنه لاذ بالصمت وتشاغل..

ألمح السيّد نافري إلى احتمال وجود صلة بين الواقعتين، وقد يكون السارق هو نفسه، ففي ذلك اليوم لم يزر المتحف إلا أحد عشر شخصا، ولسبب ما تعطّلت كاميرات المراقبة وأجهزة الإنذار، مثلما ما حدث مع سرقة كتاب الهدنة...

من الغريب أن السرقة صادفت الاحتفاء بالذكرى المائة وعشرين لوفاة فانسانت فان جوج، وقد كان السارق يدرك أهميتها وقيمتها، لكنّه بالتأكيد لم يسرقها بغرض بيعها، بل لغرض آخر، لذلك فقد قام بقطع قماشة اللوحة بشفرة حادة، وترك الإطار فارغا ..

من الغريب أيضا أن هذه اللوحة سرقت للمرّة الثانية، ولم يكن أحد يتوقع أن يحدث ذلك مرة ثانية. ففي عام 1977 تسلّل إلى المتحف حسين العسّال، وسرق اللّوحة ثم باعها لمرشد سياحي بثمن بخس، وضعها في حقيبة أخ له يعمل بالكويت، وبقيت بحوزته عاما كاملا

دون أن يدري، إلى أن صحا ضمير السارق وتعاون مع الشرطة من أجل استعادتها. على أمل أن يساعده مسئولو الشرطة في الحصول على محلّ تجاري يقتات منه، ويعيل أسرته .

غير أن نهاية حسين العسّال كانت مأسوية حينما وجد مذبوحا مضرّجا بدمائه في أحد شوارع القاهرة..

أراد عليّ أن يضع حدّا لتخمينات نافري، ويقطع شكوكه التي ذهبت بعيدا:

- كنت أعتقد أنك ستسألني عن عائلة عابد الجيلالي؟

- لقد تركت لك حريّة أن تخبرني أنت، ولم أشأ أن أحرجك.. كان يهمّني أكثر أن أزيل سوء الفهم الذي كان بيننا..

- لا عليك..كل ما أستطيع أن أخبرك به هو أن عائلة الجيلالي لا تعلم شيئا عن مصيره، أو مكان وجوده، وقد انقطعت عنها أخباره منذ فترة.. والده مانشو، وأخوه التوأم مات في بئر..

عبارة استوقفت السيد نافري:

- مانشو.. هل تقصد أن الجيلالي عابد قد يكون لديه نوع من الهوس، بمقطوعي الأيدي ..

- ربما.. في أيام الدراسة كان مقربا من أحد أساتذتنا الفنّان المعروف أمحمد إسياخم. كان يلاعبه على «البابي فوت» في

نادي المدرسة فيهزمه بيده الوحيدة. مع نهاية كل جولة. كان إسياخم يرفع ذراعه اليسرى المقطوعة كعلامة انتصار..

- لا أحد يغلب المونشو..

كان يرافقه إلى بيته أحيانا ويحمل عنه لوحاته أو حاجياته.. وفي إحدى خلواتهما بالبار الذي كان يرتاده هو وأصدقاؤه، روى له، وهو في حالة سكر متقدمة الحادثة التي كانت سببا في بتر يده.

في 27 جويلية 1943، وكان حينها عمر إسياخم خمسة عشر سنة، قام هو ومجموعة من أترابه بسرقة مجموعة من القنابل، من معسكر أمريكي أقيم بمدرسة البلدة، أخذ واحدة منها وأخفاها في بيت العائلة، وفي الغد انفجرت في يده وهو يلعب بها، قتلت أختيه سعيدة وياسمين، وابن أخته طارق، فيما أصابت ثلاثة أفراد من العائلة بجروح بليغة..

حين عاد إلى البيت العائلي مقطوع اليد، بعد ثلاث عمليات جراحية خضع لها، صرخت والدته في وجهه:

- أخرج من البيت.. أنا لم ألدك هكذا ..

في المستشفى الفرنسي كانت إحدى الممرضات، من الأخوات البيض، تشجعه على الرسم، تحضر له أقلام التلوين وأصباغ الغواش، وتحتفظ بالرسوم التي كان ينجزها. ولم يكن ذلك يعني له شيئا..

لوحاته المليئة بالتراجيديا والألم المسكونة بأشباح الذاكرة تقول الكثير من وجع هذا الفنان الذي كان يردد بأنه كان يتعذب فيما كان يرسم، كأن يقول «أنا أعتبر الرسم أكبر صدمة في حياتي، قد تكون أفظع من الصدمة التي أدت إلى بتر ذراعي». وبأنه مدين بالشيء الكثير للعزلة القصيّة وللحقد المقدّس تجاه العالم وتجاه الأشياء المقيتة، كان يصرّح «لقد جعلت الحقد والعنفوان رفيقين لي، أحببت العزلة، وأحببت في العزلة كيف أكره كل ما يجرح الحقّ والصواب. إذا كنت أساوي شيئا اليوم، فإن ذلك تحقّق لأنّني وحيد.. ولأنني أكره».

لذلك عاش متمردا على كل شيء طوال حياته التي كانت ضربة حظ، لأنه ولد قبل الأوان، وكان يمكن أن يموت، ثم نجا من القنبلة، بعدما فقد ذراعه، فكان مصدر شقاء لأمّه، التي سكنت الكثير من لوحاته..

وكانت اليد المقطوعة هاجسا محوريا في العديد من لوحاته، ففي بعض لوحات الأوتوبورتيه يوقع ببصمة يده على اللوحة. كان أخلص أصدقاء كاتب ياسين، الذي سمّاه «عين الصقر» جمع بينهما الفنّ والتمرّد، انتصر على الحياة وانطفأ أمام سطوة السرطان.

الغريب أن كثيرا من الناس لم ينتبهوا إلى حقيقة ساطعة، وهي أن ثمة شبها كبيرا بين ملامح الفنان أمحمد إسياخم، وبطل رواية أحلام مستغانمي المشهورة «ذاكرة الجسد». هذه الرواية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس. ما يعني أن الروائية استفادت من سيرة هذا الفنان

في رسم شخصية بطلها خالد بن طوبال الذي هو في الأصل اسم إحدى الشخصيات الروائية لمالك حداد. أصيل مدينة قسنطينة وشاعرها الخالد.

وقف عليّ مستأذنا بالانصراف، وهو يشكر مضيّفه على كرمه، سارا إلى البوّابة الخارجية، قبل أن يشيّعه أخبره بأنه سينتقل إلى اسطنبول لاستكمال آخر حلقات تحقيقه. وفي جميع الحالات أكد لعليّ بأنه سيطلعه على ما يمكن أن يفضي إليه تحقيقه..

لفّ ياقته حول عنقه، وأطلق ساقيه تنحدران باتجاه ساحة بور سعيد حيث فندقه الصّغير، أراد أن يقطع المسافة ماشيا بعد هذا العشاء المتبّل بفواكه البحر، كي يفرغ معدته قبل النوم، عملا بالحكمة الشعبية «تعشّ وتمشى ولو أربعين خطوة».

في زاوية ما طلب منه أحد المتسوّلين الذين احتلوا الأقواس ومداخل العمارات أن يعطيه سيجارة، مدّ له علبة السجائر بما تبقى فيها من سجائر، أمام فندق «أليتي» رأى مومستين تنتظران زبونا ما، فكر في مومس فان جوج، تلك التي قالت له علي سبيل المزاح:

- كم هي جميلة أذنك يا فنسنت؟!

صدّق كلماتها.. وفي اليوم التّالي قطع أذنه وأرسلها إليها.. تذكّر ليلته الأخيرة شهر يوليو عام 1890، في ذلك المرج الأخضر جنوب فرنسا، خرج إلي حقل قريب، تمدّد تحت شجرة وارفة ثمّ أطلق على

نفسه رصاصة من مسّدسه، بلا تردّد. كان قد ترك رسالة لأخيه ثيو يقول: «لقد غامرت بحياتي في سبيل الفنّ.. ومن أجله أوشكت أن أفقد عقلي.. وفي النهاية لن تتّحدث عنّي سوي لوحاتي..».. بعدها بستة أشهر توفي أخوه ثيو كأنه لم يتحمّل الحياة بعده..

رفع رأسه إلى السّماء المرصّعة بنجوم باهتة، ذكّرته بفان جوج وهوسه باللّون الأصفر، بحقول عباد الشمس، تذكر الجيلالي عابد الذي كان يحب وجوه فان جوج، أزهاره وأصفره المتوهج والقلق، يقف طويلا أمام زهرة الخشخاش، التي علق صورتها، على جداره غرفته، تمثل اللوحة باقة من أزهار الخشخاش ببتلاتها الصفراء، ولم تكن زهرة وحيدة كما يوحي به العنوان، وفي جانب منها زهرتان حمراون..

في مدخل أحد مقاهي بور سعيد اشترى علبة سجائر، وجلس في باحته الفارغة طلب قهوة ثقيلة، ومع أوّل رشفة رشفها ونفثة دخان نفثها، اندفع إلى أعلى جمجمته السّؤال الذي قضّ مضجعه وبات آرقا إلى غاية خيوط الفجر الأولى..

- ماذا يعني أن يصادف تاريخ ميلاده: 21 أوت، نفس اليوم الذي سرقت فيه لوحة زهرة الخشخاش، هل الأمر مجرّد مصادفة، أم أن وراء ذلك رسالة مشفرة أرسلها السارق.. هل يكون عابد الجيلالي فكّر في أن يفاجئه بهديّة ما في عيد ميلاده الخمسين؟ فلم يجد أجمل من زهرة الخشخاش، أم أن الأمر مجرّد مصادفة طائشة، ولا علاقة لصديقه بالأمر تماما..

بات يقلّب الأمر على كل وجوهه، ويطرح كل الأسئلة الممكنة التي زادها الليل والأرق عمقا وسوداويّة فلم يزده التفكير إلا إيغالا في متاهة الحيرة والجنون.

استعاد حياته كما لم يفعل من قبل، منذ ميلاده تحت برج الأسد، طفولته البائسة وقريته الفقيرة، حرمانه المبكّر من كل ما يسعد نظراءه، غبطته الوحيدة كانت تكمن في فضاء الزّاوية، حين رافقه والده وأوكل أمره إلى معلم الكتاّب أو الطالب.. وكان عليه أن يردد خلفه الحروف الهجائية بإيقاع يتمايل معه إلى الخلف والأمام، وهو يمسك بلوحته المصقولة بالصلصال، ويتملى حروفا لم يدرك كنهها بعد، كان الطالب قد رقمها له ويحفظها عن ظهر قلب:

ألف لا شان عليه، الباء نقطة من أسفل، التاء اثنتين من فوق، الثاء ثلاثة من فوق ..

وظل يكررها إلى أن حفظها عن ظهر قلب، وأدرك أن الألف هو ملك الحروف، لا شأن عليه، ولا سلطان لأحد عليه.. يمكن أن يأخذ شكل سيف بتّار، مفتاح باب قديم، أو عصا شيخ حكيم، أو صورة ناي راع متوحد في الخلاء لا يحسن غير التنهد في تجويف قصبته، نخلة سامقة أو مئذنة تعانق فجر الصحراء.

كان الطّالب يقدر موهبته في الرسم والتشكيل لذلك يكلّفه بتزويق لوحات زملائه بتشكيلات من الزّخارف والخط باستعمال الصمغ

العربي. كلما وصل أحدهم إلى ختم ربع القرآن أو نصفه أو ثمنه أو حفظه كاملا. ثم يحمل لوحة «الختمة» إلى بيت عائلته فرحا، ليعود صباح الغد محمّلا بما لذا وطاب للطّالب، وربّما بمبلغ نقدي يسلّمه له. ثم يطلب منه بتواطؤ من قرنائه أن يسرّحهم أي يعفيهم من حصّة المساء، فيكون ذلك بهجة للجميع. ينصرف فيها الأطفال إلى طقوسهم الصّبيانية..

شغله ولعه بالنّمنمة على الألواح من أن يتمّ حفظ القرآن كاملا مثلما فعل بعض أترابه، أما في المدرسة فقد كان كل شغفه منصبّا على صور الكتاب، ولم يكن يعنيه أن يكون من المتفوقين في الدراسة. كان يستغلّ حصص القراءة في تأمل رسوم الكتاب وإعادة نسخها على قصاصات وأوراق، ينتزعها من كراسته، كان يخترع لـ «مالك وزينة» بطلي كتاب القراءة ملامح جديدة، وينقلهما إلى أمكنة وفضاءات أخرى، غير المدرسة والحديقة والسّوق، الثالوث الذي كان الكتاب يسجنهما فيه. ولشدّ ما كان يتألم حين تجمع المعلّمة الكتب في نهاية الحصّة لتوضع في خزانة القسم قبل أن يستكمل هو رسم ما بدأه ..

كانت دهشته الأولى عند مشاهدته لمجلّة أشرطة مصوّرة، جلبها أحد الأقرباء من المهجر. تصوّر قصص بطل يسمّى «راهان». فتحت عينيه على رسم مختلف غير الذي كان يعرفه حتى تلك اللحظة، رسم مليء بالحركة والألوان.

تذكّر خيبات الحبّ الأوّل، نزق المراهقة واكتشاف الشّهوة، طقوس الاستمناء. وحرائق الجسد المتحفّز في القيلولات الحارّة. ليكتشف

بعدها أن رحلة البحث عن المرأة والحبّ أكبر من حكاية مالك وزينة.

عندما أفاق عليّ في الصباح متأخرا، اكتفى بقهوة وسيجارة، ثم سار على غير هدى، ضاع في أزقة «القصبة» وتعرّجاتها، وسلالمها المجهدة التي تقطع الأنفاس، نزل عبر ساحة الشهداء إلى باب الواد، جلس في مقهى «مالاكوف»، شرب قهوة، وهو يستمع إلى أغنية الشيخ محمد العنقا عندليب الأغنية الشعبية ومحبوب سكّان البهجة.

«يا الرّايح وين مسافر تروح تعيا وتولي.. شحال ندمو العباد الغافلين قبلك وقبلي..»

لا يدري منذ كم سنة لم يسر راجلا أو يتجوّل في العاصمة، في غالب الوقت كان يأتي على عجل، وفي الغالب يكون في السيّارة. ما يفسر تعطّشه الجنونيّ هذا إلى ذرعها جيئة وذهابا دون حاجة إلى الرّكوب..

في منتصف النهار انتهى به المطاف في شارع طنجة، حيث تذوّق طبق السّردين عندما وطئت قدماه أرض العاصمة لأوّل مرّة، تذكر تردّده المستمر برفقة عابد الجيلالي على هذا الشارع الضيّق والطّويل الذي يشبه الأفعوان. الصّاخب والضّاج بالحركة لاسيما في منتصف النهار، حيث يكثر الإقبال على المطاعم الشعبية الرّخيصة. وجد أخيرا كرسيّا شاغرا عند «ملك اللوبيا» طلب طبق لوبيا بزيت الزّيتون، وراح يستمتع بمذاقها المتبّل، ولا يكاد ينتبه إلى لغط الزبائن المحيطين به في هذا المطعم المشهور..

13

قضى عليّ الجنوي بفندقه الصغير بساحة «بور سعيد» يومين قبل أن ينتقل في نهاية الأمسية إلى فندق «الأوراسي» حيث حجز له منظمّو «بينالي الفن العربي» هو وكل الفنّانين الجزائريين والعرب المشاركين في المعرض.

بعد أن سوى إجراءات الحجز، واستراح في غرفته برهة من الوقت راح يتجوّل في أروقة الفندق الفسيحة وشرفاته المطلّة على الجزائر العاصمة وميناءها. أراد أن يزجي وقته بالاتصال بالإنترنت من مكتب خصّص للزبائن في بهو الفندق. فتح بعض المواقع ثم عنّ له أن يفتح علبة بريده الإلكتروني غير متفائل بأنّه سيجد شيئا مهمّا سوى الرسائل القديمة ودّعوات المعارض وبعض الرسائل الإدارية.

وقعت عينه على رسالة حسبها للوهلة الأولى بريدا مزعجا غير مرغوب فيه، من ذلك النّوع الذي تعوّد عليه، لأنّها من شخص لم يكن يعرفه، ولكن بمجرّد أن قرأ فقرتها الأولى تبيّن له أنها من زناديدا ردّا على رسالته التي كان قد أرسلها إليها. يائسا من أن تكلّف نفسها

عناء الرد عليها..

«العزيز عليّ.

تحياتي لك ولكل العائلة. أعتذر أنّني تأخرت في الإجابة على بريدك، الذي وردني منذ فترة، ربما تستغرب أنني أجيبك من بريد غير الذي راسلتني عليه، والأمر يعود إلى ما تعرّضت له من مضايقات ورقابة عليّ وعلى بريدي وهاتفي في الفترة التي تلت اختفاء عابد...

لقد اضطرّتني هذه الظروف إلى مغادرة باريس والعودة إلى بلدي أوكرانيا بمعيّة ابنتي الصغيرة حدة، هروبا بنفسي من القلق والتوجّس الذي نغّص عليّ حياتي في البيت والعمل.

كنت أتمنّى لو كان بإمكاني أن أجيبك بما يثلج صدرك، ويطمئن قلبك أنت ووالديّ عابد عن مكان وجوده وحاله، ولكنّني مثلكم لا أعلم شيئا، غيابه الغامض صار مصدر قلق وأرق لي، صرت أسيرة المخاوف. تتقاذفني الهواجس وتعصف بي الظّنون في كل الجهات، أستيقظ مفزوعة من نومي بسبب الكوابيس والأحلام المرعبة التي تقضّ مضجعي وتهدّ جسدي..

لقد كنت حريصة دائما على مرافقة عابد في كل مكان يحلّ به، وقد كنت إلى جانبه في سفرته الأولى إلى بغداد، وقد كنت سأعود معه في المرّة الثانية ليبدأ تصوير شريطه عن الخطاط ابن مقلة، إلا أن حملي منعني من ذلك، خاصة بعدما ألح هو علي بأن أبقى بباريس

حفاظا على ابنته التي سكنت أحشائي..

لا أستطيع تفسير ذلك الهوس الذي سكنه ولازمه من أجل إنجاز ذلك الفيلم، ولا أعلم لحدّ الساعة سرّ تعلقه بهذا الخطّاط الذي قطعت يده في زمن غابر.. وكم رجوته أن يرجئ عمله إلى أن تستقيم الأوضاع في العراق، لكنّه كان مصرا أيمّا إصرار على ذلك. ولم تجدِ توسلاتي معه من أجلي ومن أجل ابنته.

بعد شهرين عاد إلى باريس بلحية، اعتقدت أنه سرعان ما سيتخلص منها، وقد قلت بأنه ربما لم يجد الوقت لحلقها بسبب انشغالاته، لكنّه تمسك بها، بل أنه أبعد يدي برعونة حين كنت أداعبها في لحظة حميمية، وأسرّ له:

- يجب أن تحلق هذه اللّحية، فأنا لا أحبّها..

لاحظت أنه تغيّر كثيرا، وصار ميّالا إلى الصّمت والعزلة، ينزوي كثيرا لإجراء مكالمات، ولا يترك لي فرصة لسماع ما يقول، كل ما يفعله هو الجلوس أمام شاشة التلفزيون، والتنقل بين القنوات الإخبارية بحثا عن أخبار المجازر الدّموية التي تقترفها الجماعات المتطرّفة. كل خوفي أن يكون وقع في شرك تلك الأفكار المسمومة والجماعات المغالية.

بعد شهر من ذلك عاد إلى بغداد وترك لي مبلغا معتبرا من المال، عقدت المفاجأة لساني، ولم أستطع أن أسأله عن مصدره. كل ما قاله

لي بأنّه سينتقل إلى هراة بأفغانستان للبحث عن نسخة من القرآن الكريم يكون ابن مقلة قد كتبها، وقد تكون محفوظة بأحد المتاحف هناك. ولمّح بأنه قد لا يستطيع الاتصال بي هاتفيا. بسبب التضّاريس الصعبة وعدم وجود التغطية الهاتفية هناك.

قبل مغادرته، تأسف أنه لن يستطيع البقاء معي حتّى ميلاد ابنتنا التي لم يكن قد بقي على ميلادها سوي شهر. ثم طلب منّي أن أسمّي ابنتنا على اسم والدته «حدّة» وأرسل جزء من المال باسمه إلى والديه كنفقات لوليمة العقيقة. لكن ذلك المبلغ صودر مني عند تفتيش شقّتنا بعد أشهر من مغادرة عابد وتمّت مساءلتي عن مصدره، ولم ينقص منه غير المبلغ الذي أرسلته لوالديه.

حينما سألت ضابط الشرطة في تلك المداهمة لشقتنا عن كل هذا الإزعاج أخبرني بأن هناك مذكّرة بحث في حقّ زوجي عابد الجيلالي بسبب تورطه في سرقة آثار فنية من تركيا ومصر.

ما اضطّرني إلى القول بأنني انفصلت عنه منذ فترة، وليس هناك أي اتصال بيني وبينه، وليست لديّ أية معلومات عن مكان وجوده، ثم طالبته باستعادة المال الذي ادعيت بأنه من مدّخراتي.

كان هذا آخر لقاء بيننا، وهذا كلّ ما يمكنني أن أخبرك به عن مصير صديقك عابد الجيلالي.

لقد تردّدت كثيرا في كتابة هذا البريد نظرا لما فيه من مخاطرة،

لذلك أرجو منك مسح الرسالة نهائيا بعد قراءتها، وعدم التفكير في التواصل معي على هذا البريد أو غيره على الأقل في الوقت الحالي.. المخلصة/حدّة».

أحسّ عليّ بهزّة رعب تجتاحه، فلم يكن يتخيّل أن الأمر وصل إلى هذا الحدّ، نقلت له رسالة زنايدا عدوى الخوف، لذلك تلفّت يمينا ويسارا، ثم ضغط على زر حذف الرسالة، ثم مسحها أيضا من سلة المهملات، تأكد من خروجه النهائي من علبة بريده الإلكتروني. أطفا جهاز الحاسوب كليا، ثم غادر باتجاه مطعم الفندق..

14

وصل عليّ الجنوي إلى بهو المعرض متأخرا، كان كل المدعوين لافتتاح بينالي الفن العربي قد وصلوا جميعهم، وكان هو آخر الملتحقين من الفنّانين الذين نقلوا بالحافلة إلى متحف الفنّ المعاصر بوسط العاصمة قبل ساعة من الزّمن، تحسبا لحضور الوزير الذي اصطفّوا لمصافحته في مدخل القاعة، ثم وقف كل أمام لوحاته في انتظار مرور راعي المعرض الذي كان يجامل ويستفسر ويبدي إعجابه ويستعرض معارفه القليلة في الرسم وأساليبه.

لم يمكث الوزير كثيرا في الطابق الأوّل حيث تعرض لوحات الفنّانين الجزائريين، بل كان كل مبتغاه هو الطّابق الثاني الذي تعرض به لوحات الفنّانين القادمين من الدول العربية، وفيما كان يفكّر بالانسحاب بحثا عن مقهى قريب، سمع تصفيقات محتشمة في الطابق العلويّ، رافقت مرور الوزير ومرافقيه بلوحات الفنّان العراقي المعروف سعد السماوي الذي استغل الفرصة ليهدي لوحته «كولاج» لفنّان جزائري صديق، رأى أن يترك اسمه مفاجأة له.

لم يلق بالا للأمر في البداية، ولم يقده الفضول الذي دفع ببعض من كانوا في الطّابق الأرضيّ إلى الصّعود، حيث كانت أضواء العدسات تشتعل ويكرّر مصوروها أخذ صورهم للوحة التي تتوسط الفنّان والوزير..

كل ما كان يشغل باله هو ملء ثقوب دماغه، وتعديل مزاجه بقهوة ثقيلة لم يجد الوقت لشربها بسبب تأخّره في الاستيقاظ وعجلته من أجل الالتحاق ببقية الفنّانين.

ما إن انفضّ موكب الوزير حتى زحف هو باتجاه مقهى «ميلك بار»، الذي بقي محافظا على اسمه الفرنسي القديم، فقد كان في العهد الإستعماري حانة يجتمع فيها الفرنسيون كل مساء لاحتساء النبيذ الجزائري الرفيع المعصور من كروم الجزائر وحقولها،الممزوج بعرق الجزائريين المقهورين ودمائهم.

هنا انفجرت القنبلة التي خبأتها المناضلة زهرة ظريف، في مكان ما تحت إحدى طاولات الحانة، بعدما اندست بين مرتاديها، وهي في عنفوان جمالها وشبابها، فلم يشك في أمرها أحد، فكان الانفجار وبالا على فرنسا، هز كبرياءها وفضح غرورها، في القضاء على أبطال معركة الجزائر وبطلاتها..

جلس عليّ في باحة المقهى مستقبلا تمثال الأمير عبدالقادر، وطلب قهوته الثّقيلة، راح يرتشفها مستمتعا بمذاقها، يمتصّ حافة

الفنجان خوفا من أن يندلق شيء منها أو يبقى أثر سوادها على بياض البورسلان..

تذكّر علبة سجائره، حزّ في نفسه أنه «تقهوى» بالتعبير الجزائري، دون تدخين، ودون أن يزاوج بين عادتيه اللتين أدمنهما. طلب قهوة ثانية لمرافقة سيجارته الأولى ذلك الصّباح المتأخّر. شاسكه النادل بدعابة:

هذه للقارو.. أم للأمير عبدالقادر؟

لم يعقب بل تلمّس سيجارته وهو يفكر في سحر هذا اللفافة التي أخذت اسم «القارو» في لغة الجزائريين وملأت حياتهم، لذلك يقولون « قهوة وقارو خير من السلطان في دارو..» ابتسم في قرارة نفسه من خاطر عنّ له، وغبط الأمير على أنّه يستطيع أن يتناول قهوته كل صباح، دون عناء في هذه السّاحة الجميلة. التي يصر الجزائريون على أن يختصروا اسمها في ساحة «العوْد»، أي الحصان، بدل اسمها الرسمي «ساحة الأمير عبدالقادر» كأنما يتجاهلون وجود الأمير الفارس ممتطيا ظهر جواده في هذا المكان، محاصرا من الجهات الأربع بالبنايات والعمارات.

لم يبرز النحّات إن كان الأمر يتعلق بعود أو عودة، ربما يحيل الاسم على العاديات أي الجياد التي أقسم الله بها في القرآن، لكن قاعدة الثمثال كانت عالية جدا،علوا يجعلها تشرف على البحر ومشرق الشمس،كما يجعل الأمير وجواده بعيدين عن متناول كل من تسول

له نفسه العبث بالتمثال أو خدشه، أو محاولة التفكير في تسلقه والركوب رديفا للأمير.

فكر على الجنوي في تلك الرحلة الشاقة التي عبرها الأمير حيّا وميّتا، إلى أن استقر على ظهر هذا الجواد، في هذه الساحة محاطا بمبني بلدية الجزائر، وبمكتبة العالم الثالث، ومقهى ميلك بار.

هل يعقل أن الصّوفي الشاعر عبدالقادر بن سيدي محي الدين، الذي بويع تحت شجرة الدردار في سهول غريس بالغرب الجزائري، ليكون أميرا على السيوف والقلوب الرافضة للاحتلال الفرنسي، هو نفسه الماثل أمامه بلونه الأخضر؟؟

هل هو نفسه الثائر الذي قارع فرنسا أزيد من سبعة عشر عاما وانتهى به المطاف سجينا في «أمبواز». ثم اختار أن يكون منفاه الجميل في دمشق بجوار شيخه الروحي الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي .

يذكر له التاريخ أنه لم يتعصب لملّة أو لدين، بل كان متسامحا وإنسانيا حدّ الثمالة، عندما آوي عدد كبيرا من المسيحيين في دمشق، وأنقذ أرواحهم من فتنة مهلكة كانت ستطالهم، ومجزرة كانت ستقع في حقهم .

بعد استقلال الجزائر نقل جثمان الأمير عبد القادر من دمشق، من ضريحه بجانب محي الدين بن عربي، إلى مقبرة «العالية» باعتباره

مؤسس الدولة الجزائرية.

شطت مخيلة علىّ الجنوي، فخمن أن من يكتفون باسم ساحة «العود» ربما خيّل إليهم أن الأمير يترجل في الليل، ويغادر المكان ليمضي ليلته في مرقده بالعالية، غارقا في أوراده، منكبا على إنهاء أجزاء جديدة من كتابه «المواقف». أو مؤانسا لمن حوله من الأموات في هذه المقبرة التي لم تدفن فيها مالكتها.

الكثيرون لا يعلمون أن اسم «العالية» حيث توجد المقبرة التي يدفن فيها عظماء الجزائر إلى جانب بسطائها هو لامرأة جزائرية لعبت دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية. وفي دعم الكثير من المشاريع الخيرية لفائدة مجتمعها. وكانت تحظى باحترام كبير في محيطها القريب والبعيد.

هذه المرأة التي تحمل مقبرة العالية اسمها، كانت امرأة ثرية تبرعت بعد عودتها من الحج، حيث توفيت والدتها، بقطعة أرض، عام 1830، سنة احتلال الجزائر، للسلطات الفرنسية من أجل جعلها مقبرة للمسلمين، على أن تسمى باسمها، فكان لها ما أرادت.

ولدت بمنطقة سور الغزلان، ونشأت في كنف عائلتها الغنية، وكان لها أخ وأخت آخران. تزوجت من مدرس اللغة العربية بالجزائر العاصمة، ولكنها لم تنجب أولادا.

بعد وفاة والدها وحصولها على قسمها من التركة عملت في مجال

التجارة، فكبرت ثروتها وتوسعت العقارات والأراضي التي تمتلكها في مناطق كثيرة في الجزائر ومختلف جهاتها.

كانت تشرف على مدرسة أسستها بمالها الخاص لتعليم وكفالة اليتيمات، وكان بيتها مقصدا للمحتاجين والفقراء، وكانت تقيم الولائم الجماعية في المناسبات الدينية المختلفة.

من ناحية المظهر وطريقة اللباس «كانت تلبس كل أنواع الحلي حتى أنها عندما تدخل الأعراس تخطف الأنظار من جميع الحضور بسبب ألبستها وحليها ومجوهراتها الفاخرة».

تقول الروايات إنها ماتت مسمومة، بسبب طمع أقربائها في ثروتها الطائلة، ودفنت بمدينة سور الغزلان، حيث كتب على قبرها «الولية الصالحة العالية حمزة».

فكر علي أن الأمير لو دفن بمكان آخر غير العالية لكان قبره ضريحا يزار، ويؤمه المريدون والزائرون من كل مكان، تبركا بالصوفي القادري الذي سمي باسم عبدالقادر الجيلاني.

***

عاد عليّ الجنوي أدراجه إلى متحف الفنّ المعاصر، صعد إلى

الطّابق الثاني، راح يمرّر نظره بشكل بانورامي على اللوحات المعروضة، لكنّه وقف طويلا أمام لوحة سعد السماوي «كولاج» يتأملها غير مصدّق لما رأت عيناه، تأكّد من التوقيع في أسفل اللوحة، هل هي لوحته «تأبينية ابن مقلة»؟ أم أنّه واهم؟ لم يتغيّر فيها شيء سوى بعض قطع صحيفة قديمة ألصقت على مساحتها..

فاجأه من الخلف سعد السماوي، وهو يربّت على كتفه:

- أخيرا عثرت على صديقي القديم عليّ الجنوي.. أين أنت يا رجل؟

كانت الدّهشة قد عقدت لسانه، فلم يجد جوابا سوى الاستسلام لعناق دام طويلا، منذ سنوات الدّراسة في موسكو لم يلتقيا، سوى ما كان يصلهما من أخبار طائشة عبر الصّحف والقنوات عن معارض كليهما..

- هيه هل أعجبتك لوحتي؟ هي لك إذا شئت.. أعرف ما تفكّر فيه. سنلتقي في المساء ونتحدّث على فنجان قهوة.. الآن عندي موعد مع صحفية من أجل تسجيل لقاء...

منذ احتسى كأسه الأولى في المطعم الذي دعاه إليه عليّ، راح سعد السماوي يفضي بما في قلبه من هموم كانت تضغط على قلبه، ويفيض في الحديث عن هموم العراق والفن واليوميّات البغدادية والسّلم الضائع، لكن عليّ قاطعة:

- رجاء سعد حدّثني عن عابد الجيلالي.. متى رأيته وأين هو الآن؟

- لا أعلم حقيقة أين هو الآن.. زارني منذ فترة، طلب منّي أن أسلّمك هذه اللوحة، حين علم أنني سأشارك في بنالي الفن العربي المعاصر بالجزائر.. تفاجأت عندما طلب منّي أن أضع توقيعي على اللّوحة دون أن أسأل..

حقيقة لم يكن عابد الذي عرفته،المرح والمقبل على الحياة، كانت علامات القلق والتوتّر بادية عليه، أطلق لحيته وفرّط في أناقته وهندامه بشكل غريب...

حين سألته عن مشروع فيلمه الوثائقي عن ابن مقلة، وإن كان يحتاج إلى أي مساعدة، أخبرني باقتضاب بأنه سيسافر إلى تركيا وأفغانستان لكي يكمل ما تبقّى له من الفيلم..

وهو يغادر ترك لي مبلغا من المال، أصرّ علي أن أتدبّر به أمري، أو أشتري شيئا للأولاد، ولكنّني حين عددته بعد ذلك وجدت أنه لم يكن مبلغا هيّنا، فعرفت أنها كانت رشوة نظير السكوت والتواطؤ..

أنت تعرف يا عليّ أكثر من أي شخص أن علاقتي بعابد في موسكو لم تكن علاقة عاديّة، بل كانت مزيجا من المحبّة والغيرة والعناد والنزق، تتذكّر أننا كنّا معجبين كلينا برنايدا الأوكرانية، لكن ما فصل بيننا هو جولة شطرنج انتهت بفوزه علي في ليلة سكر، وكان الرّهان

يقضي بأن يتنازل المنهزم منا عن زنايدا للثاني، فكان علي أن أكفّ عن منافسته في حبّها..

من سخرية القدر أن أكون أحد شهود عقد زواجهما الشرعيّ، في بغداد في الحضرة القادرية، بعد سنوات قضياها في باريس مرتبطين بزواج أبيض.

أما طلبه الأخير فكان أغرب ما كنت أتخيّله، وهو أن أوقّع على لوحة ليست لي، بعد أن طمس توقيعها الأصليّ، ثم أغامر وأحملها إلى الجزائر لكي أهديها لك.. كنت متأكدا منذ البداية أنها ليست له، لقد قارنتها بأساليب كثير من الرسّامين العرب والحر وفيين، قادني بحثي إلى مقارنتها بأسلوبك. ثم قادتني الصدفة في باريس إلى أن تأكّدت من أنّها هي نفسها لوحتك «تأبينية أبن مقلة». حين عثرت على كتالوج معرضك «كوريجرافيا الأبجديّة» في باريس، لدى أحد باعة الكتب والمجلاّت القديمة على ضفاف نهر السين..

كلّ ما أضافه هو أنّه ألصق جذاذات محترقة الحواشي من كتاب الهدنة على اللّوحة، وزّعها بشكل لا يثير الانتباه، لكي يوحي بأنّها جزء صميم منها.

تعرف أنني مدير متحف عراقي كبير، وقد تلقيت نسخة من مذكّرة البحث عن كتاب الهدنة، التي أصدرها الإنتربول، والتي تدين عابد الجيلالي.

لكن دفعني عناده الجزائري إلى أن أتواطأ معه في مغامرة غير محسوبة العواقب، وأقبل بتهريب لوحة بعض أجزائها هي كتاب الهدنة، الذي سرق من متحف «أيا صوفيا» باسطنبول. وكان يمكن لأجهزة السكانير في المطار أن تكتشف أمرها. كنت مقتنعا أن الأثر الضّائع هو مجرّد نسخة مزوّرة ورديئة من كتاب الهدنة الأصلي الذي أبدعه ابن مقلة. كانت تستعمل لاستدراج السيّاح والباحثين إلى معالم اسطنبول..

كان النبيذ الجزائري قد بلغ مبلغه من وعي سعد السماوي، وبدأ يثقل حركته، ويحرّر لسانه بالهذيان.. قال لي صارخا..

- أنا لست نادما، ولا أخاف أحدا ..هي لوحتك عادت إليك.. أسمح لي أن أهديها لك. ضع عليها توقيعك من جديد.. وراح يقهقه عاليا..

ثم رفع كأسه عاليا:

- في صحّة عابد الجيلالي، علي الجنوي، وابن مقلة.. وأنا سعد السماوي.. «وان تو ثري فيفا لالجيري..»

خفت أن يتفاقم سكره أكثر. دفعت حساب العشاء والشّراب، ثم قدته، إلى غرفته بالفندق، وأغلقت عليه الباب..

في الصّباح، وهو يتصفّح الجرائد في كافيتريا الفندق، رأي عليّ

حوار سعد السماوي في كبرى الصّحف الجزائرية، مرفوقا بصورتهما معا أمام لوحته «كولاج». يعلن فيه عن إهدائه إياها لصديقه علي الجنوي عربون محبة وصداقة قديمة ..

وفي المساء تلقّى علي الجنوي رسالة نصيّة قصيرة على هاتفه النقّال من رقم دولي «هنيئا لك لوحة «كولاج»» التي أهداها لك صديقك العراقي سعد السماوي. ما أجمل صورتكما أمامها. مودّتي / صديقك نافري.

انتهت في: 16 أ فريل 2016.

تنويه وتنبيه

أنا مدين بالكثير من الشكر العميق لهذه الأرواح والشّخصيات التي ساهمت في نص هذه الرواية وسكنتها بقوّة حضورها، ولذلك فإنّني أعتذر عن أي تقارب بين ملامحها وملامح أشخاص حقيقيين عرفتهم، فليس ذلك إلا من قبيل التخييل المحض.

غير أن الحقيقة الوحيدة في هذه الرواية هي أن لوحة «تأبينية أبي علي بن مقلة» هي لوحة للفنّان التشكيلي والخطّاط الصديق عبدالحفيظ قادري الذي أرفع له كل التحيّة والمحبة والامتنان.